
طاهر الملاح
على ضفاف دجلة والفرات

طاهر الطناحي

على ضفاف دجلة والفرات



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

دار المعارف

للطباعة والنشر

المحل الرئيسى بالقاهرة	٧٠ شارع الفجالة
فـــرع الاسكندرية	٢ ميدان محمد على
مكتب فلسطين وشرق الأردن	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب السودان	شارع السردار بالخرطوم

كلمة المؤلف

هـذه القصص

وضعت هذه القصص عن حياة بنى العباس فى عصرهم الذهبى ، لم أبتدع فيها أشخاصاً خياليين ، أو أحداثاً روائية على نحو ما يفعل كتاب الروايات . وإنما بنيتها من صميم الواقع بأسلوب أدبى ، ونسجتها من حقائق التاريخ السياسى والاجتماعى فى ذلك العصر ، وجلوت فيها طائفة من مشاهير الرجال وكبار الأدباء فى ملأ الفن القصصى الذى يلقى على التاريخ لوناً من الجمال والجلال وقوة التأثير .

وقد أردت أن أضع أمام القارئ صوراً ناطقة حيّة تخلع عنها أكفان الماضى الذى بقيت فيه أكثر من ألف عام ، وتبدو فى ثوب عصرى جديد يتفق وزىّ هذا العصر فى الأداء والتفكير .

وبدأت بميلاد الدولة العباسية التى قامت على أنقاض دولة بنى أميّة بعد ما طوت فى الخلافة والسلطان ألف شهر كاملة ، فصورتُ هذا الميلاد الجلل فى قصة ، ثم أتبعتها بقصص أخرى عن أروع ما فى ذلك العصر من أحداث ، وأشهر من فيه من رجال ونساء . وقد جعلت فيها للأدب نصيباً ملحوظاً لأنه كان كالسياسة والحرب من أبرز نواحى العصر

العباسى وألمع ألوان حياته . على أن الأدب على الدوام ممتزج بحياة الأمم ، بل هو كنزٌ لتجارب الأمم ، وتاريخ لعواطفها وميولها ، وسجل لما فى الإنسان من صفات وغرائز ، وأداة أصيلة فى توجيه الحياة الإنسانية منذ أقدم العصور . وأسفار التاريخ مملوءة بالحب والبغض ، والرحمة والقسوة ، والزهد والطمع ، واللذة والألم ، والأمانة والغدر ، والتسامح والانتقام ، وأمثلة الشجاعة والإقدام، وغيرها مما هو مجال الأدب ومما يصدر عن الطبيعة البشرية وترجع إليه عند التحليل جميع الأحداث التى سطرتها هذه الأسفار عن مختلف العصور .

وقد عُنيت فى هذه القصص بتصوير هذا الجانب ، وتخيرت بينها بعضاً من مآسى الملوك والوزراء والقواد والأدباء . على أنى لم أخل هذه المآسى من الطرافة الأدبية تخفيفاً لما تضمنته من ألم يثير الأشجان . ولم يكن رائدى فى ذلك كله أن أكتب تاريخاً على نَمَطِ ما يكتب المؤرخون ، بل أضع قصصاً مشوقة عن هذا العصر التاريخى ، تنقل القارئ فى يُسر إلى حياته الاجتماعية والسياسية ، فيتعرف أسلوب أهله ، وما كان لهم من عادات وأخلاق وأهداف .

ولما كنت قد حافظت على القصد فى الوقائع وأسماء الأشخاص ، وحرصت كل الحرص على وحدة القصة وعناصرها الضرورية ، فقد تنكبت التمهيد والشرح مما يعمد إليه بعض الروائيين والقصصيين حتى لا يمل القارئ أو يشرد ذهنه ، أو يتقيد برأى خاص أو تأثير معين ، فيقل شوقه

وتحبط لذته ، بل دخلت رأساً فى الموضوع ، وتوخيت ما عناه الكاتب الأميركى إدجارالن بو عن القصة فى قوله « يجب على القصصى الأديب ألا يكيف أفكاره لتتناسب مع حوادث القصة ، بل ينصرف أولا إلى اختيار تأثير معين يريد إثارته فى نفس القارئ ، ثم يعود إلى الحوادث فيضع منها ما يناسب هدفه ، ويرتبها بأقوى الأساليب على إبراز ذلك التأثير المنشود » . وكذلك كنت فى تأليفى لهذه القصص بقدر المستطاع . وربما أحوجنى هذا التأثير المنشود إلى أن أبدأ القصة من آخرها أو وسطها حفزاً للقارىء على الانتباه لمجرى الحوادث وعبر الأيام ، وزيادةً فى التشويق مع المحافظة على الوصف اللازم والتحليل الضرورى للأشخاص والأحداث

وقد اقتضانى هذا العمل مجهوداً شاقاً ، لأن عناصر هذه القصص المرتبطة بأبطال هذا العصر مبعثرة فى بطون التاريخ وكتب الأدب . وقد يكون للبطل الواحد صلات سياسية وأدبية بأشخاص كثيرين وأحداث عدة . ولا بد من الإحاطة بهؤلاء الأشخاص والأحداث حتى تتم لصورته وتنجلى حقيقته ليوضع فى المكان الملائم ، وليكون ماثلا للأذهان على الوجه الصحيح .

هذا إلى ما يفرضه أسلوب القصة من الطرافة والرشاقة وعمق التأثير . وقد يكون ذلك سهلا ميسراً فى كتابة الرواية الموضوعة التى يتيح الخيال فيها للأدب مجالا . ولكننى وقد أخذتُ نفسى بالحقائق التاريخية كانت مهمتى صعبة . وكانت تعوزنى أحياناً عناصر الخيال التى لا بد منها لكاتب

القصة ، فاعتمد على أسلوبى الأدبى ، وما يبيحه الفن من أوضاع لا تشوّه حقائق التاريخ ، لأنى أريد أن أجلو فى جمال الواقع صفحات هذا العصر الذهبى الذى كان عصر الحضارة الإسلامية فى أوجها ، وكان أبرز عصور الإسلام فى الحرب والسياسة والأدب والاجتماع .

على أن إحساسى بأن من حقائق العصر العباسى وأحداثه ما هو أوقع فى النفس من الخيال قد يسّر أمامى الطريق ، وجعلنى أتغلب على هذه الصعوبة ، وأقدم للقارىء قصصاً فيها تاريخ لمن يحب التاريخ ، وفيها فن وأدب لمن لا يحب التاريخ .

وإنى لأرجو أن أكون قد أديت واجباً نحو الثقافة العربية ، وساهمت بنصيب فى إحياء الأدب العربى، فقد أخذنا نحن العرب نسير فى مواكب العالم الحديث متعاونين ، ونحذو حذو الأمم الناهضة ، وننهج نهجها فيما شيدت به مجدها ، ورفعت عليه بنيانها .

وفى ماضى الأمة العربية ما ينبغى أن يكون دعامةً لحاضرها ونبراساً لنهضتها الجديدة ، وصلةً باقية بينها وبين أسلافها الأمجاد. ولا ضَيْرَ أن يكون فى حياة هؤلاء الأسلاف هِناتٌ وعيوب ، إلى جانب ما كان لهم من مجد خالد فى تاريخ الشعوب ، فالّنا لنا من هِناتهم عبرة ، ومن همتهم حافزاً يدفعنا على الدوام إلى طلب المجد .

طاهر الطناحى

ميلاد دولة

هذه القصة تصور نوازع النفس الإنسانية في طلب الملك والسلطان وتدور حول الصراع بين مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وأبي العباس عبد الله ابن محمد. وهو الصراع الذي انتهى بمقتل الأول، والمناداة بالثاني أول خليفة لبني العباس سنة ١٣٢ هـ.

انهزم الليل، ومروان بن محمد على « نهر دجلة » مهزوماً أمام جيوش أبي العباس. وقد غرق عدد كبير من قواده وجنده، وانفضّ عنه كثير من أنصاره وصحبه، ويئس من النصر، وأعوزته القدرة على استئناف القتال، وأيقن أنه لا ريب هالك إن لم يفرّ بمن معه إلى بلد آخر، ويعسكر في أرض أخرى، فأعانه ما بقي من الظلام على الفرار، وكان شديداً على نفسه وهو خليفة الأمويين، وأمير المؤمنين أن يفرّ أمام العباسيين الذين كانوا بالأمس مستضعفين في الأرض يسومهم سوء العذاب، ويناهض دعوتهم ويقتل دعاتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا. ولكنه كان بين اثنين أحلاهما هو الفرار المرير إلى « حرّان[1] »، ففر إليها، وفيها من رجاله

---

(١) بلدة في شمال الجزيرة.

كثيرون فلحقت به جيوش أبى العباس فى عُدّةٍ ضخمة ، وعدد عظيم ، وقد استفحل أمرها وازدادت قدرتها ، وعظم خطرها ، ونظر مروان ، فرأى نفسه أقل شأناً ، وأضعف جنداً ، فانسحب بمن معه ، وأسرع فى الفرار ، وأسرع العباسيون وراءه حتى اجتاز فلسطين إلى مصر ، ووصل إلى الجيزة وعسكر حول قرية « بوصير » .

وما كاد يخندق بها حتى أقبل جيش « صالح بن على » عم أبى العباس ، وحاصره فى هذا المكان، وكانت المعركة الفاصلة . فأحرق مروان ما معه من علف وطعام وخيام ، وأخفى بناته ونساءه فى كنيسة ، وأوصى بهن غلاماً من غلمانه ، وعبأ جنده ثم قال لهم :

— أيها الرجال إن الجزع لا يزيد فى الأجل ، وإن الصبر لا ينقص من الأمل . وها هو العدو أمامكم ، فإما النصر ؛ أو الموت كراماً .

وخرج بمن معه ، فلما رأى كثرة العباسيين ، كسر غمد سيفه ، وحمل عليهم ، فكسروا أغماد سيوفهم وحملوا عليه ، وتلاقى الرجال بالرجال ، وتكسرت النصال على النصال ونزل « مروان » عن جواده ، فوثب إليه رجل من أعدائه فأخذه ، فقال له فى أشفاق :

« أكرمه ، فإنه أشقر مروان » .

وحمى وطيس القتال ، وانبرى القائد عامر بن إسماعيل لمروان بن محمد فطعنه طعنة أصابت منه مقتلا ، فخر صريعاً ، واندحر الأمويون ، وقتل أكثرهم ، وفر من نجا هائماً على وجهه إلى السودان و بلاد الأحباش .

ودخل الكنيسة عامر بن إسماعيل بعد المعركة وقد وهن الليل وانجابت جيوش ظلامه ، فإذا بغلام لمروان شاهر السيف يحاول الدخول إلى بناته ونسائه — وكن بها مختفيات — فأستوقفه عامر ، وسأله : من أنت ، وماذا تصنع ، وإلى أين ؟

فأجاب الغلام : أنا مولى مروان ، أوصاني سيدي إذا هو قتل أن أدخل إلى بناته ونسائه بالكنيسة فأضرب أعناقهن . . . !

فقال عامر : بل نحن نضرب عنقك . . . ؟

وأمر من معه بقتله ، فصاح :

— دعوني ، ولا تقتلوني ، فإنكم إن قتلتموني فقدتم والله ميراث رسول الله ، وشعار خلفائه

فقال عامر لأصحابه : خلوا عنه ، ولا تقتلوه . وسننظر ما يقول . . ؟

قال الغلام : إن كذبت فاقتلوني . . . هلموا فاتبعوني . . .

فخرجوا من الكنيسة وتبعوه ، فكشف لهم موضعاً بين الرمال فإذا فيه شعار الخلافة « البردة والقضيب والمخصر » قد دفنها مروان بن محمد حتى لا تؤول لبني العباس ، فأخذها عامر بن إسماعيل ، ثم عاد إلى الكنيسة ، فوجد بها متاع مروان وبناته ونساءه ، فجلس على أريكة كانت مفروشة له ، وأكل من طعامه فخرجت إليه « أم مروان » إبنة مروان الكبرى فقالت :

— يا عامر إن دهراً أنزل مروان عن فرشه حتى أقعدك عليه ،

فاحتويت مجلسه ، وأكلت طعامه ، وغلبت على أمره ، لقادر أن ينزلك هذا المنزل ، و يغيّر ما بك . . .

فلم يجبها عامر ، ومضى فى طعامه وشرابه فى نهم ولذة ، وهو يتمتم :

— دهيد يا چوانكان . . . دهيد يا چوانكان[1] .

وهو ما كان يصيح به حينما قتل مروان فى المعركة . ثم نهض ممتلئاً وحمل البردة والقضيب والمخصر ، وساق بنات مروان ونساءه إلى قائد جيش العباسيين بمصر « صالح بن على » ، فلما دخلن عليه تكلمت أم مروان ، فقالت :

— يا عم أمير المؤمنين . حفظ الله لك فى الدنيا والآخرة نحن بناتك و بنات أخيك ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا . . .

فأجاب صالح :

— إذن والله لا نستبقى من بنى أميّة أحداً ، رجلا ولا امرأة ، فقد حكمتم فينا ألف شهر ، واقترفتم من الآثام ما تلحقكم سُبّته آلاف الأعوام .

فقالت أم مروان : يا عم أمير المؤمنين وليسعنا عفوكم . . .

فقال صالح : ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى ابراهيم بن محمد « الإمام » فى محبسه بحرّان ؟ ألم يقتل هشامُ بن عبد الملك ، زيدَ بن على

(١) هذه عبارة إيرانية . ومعنى « دهيد » أعطوا . و « يا بجوانكان » يا شباب . والكاف تنطق جيا .

ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، ويصلبه فى كناسة الكوفة ، ويقتل امرأته بالحيرة على يدى يوسف بن عمرو الثقفى ؟. ألم يقتل الوليدُ بن يزيد ، يحيى بن زيد ويصلبه بخراسان ؟ . ألم يقتل عبيد الله بن زياد الدعىّ ، مسلمة بن عقيل بن أبى طالب بالكوفة ؟ ؟ . . .

فقالت : يا عم أمير المؤمنين ، وليسعنا عفوكم .

فقال : ألم يقتل يزيد بن معاوية « الحسين بن على » على يدى عمرو ابن سعيد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ . ألم يخرج بحرم رسول الله (ص) سبايا حتى ورد بهن على يزيد ، كما يرد بنساء الكفار . . .

فقالت : يا عم أمير المؤمنين وليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا . . .

قال : ألم يبعث عمرو بن سعيد برأس الحسين إلى يزيد بن معاوية على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها حتى قدموا دمشق ، كأنما بعث برأس رجل من أهل الشرك . . . فماذا أبقيتم يا بنى أمية ؟ ! . .

فقالت أم مروان : يا عم أمير المؤمنين ، هذه جريرة أسلافنا . . .

قال : ألم يوقف يزيد بن معاوية حرم رسول الله (ص) موقف السبى يتصفحن جنود أهل الشام الجفاة الطغام ، فيطلبوا منه أن يهب لهم حرم رسول الله استخفافاً بحقه صلى الله عليه وسلم ، وجرأة على الله عز وجل وكفراً لأنعمه . فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ! ؟

فقالت : وليسعنا من عفوكم يا عم أمير المؤمنين ما وسعكم من جورنا . . !

فقال صالح : أما العفو ، فنعم قد وسعكن ، فإن أحببتِ زوجتك من

ابني الفضل بن صالح وزوجتُ أختكِ من أخيه عبد الله :

فبكت وانتحبت ، وقالت له :

— يا عم ، وأيُّ أوان عُرسٍ هذا ؟ ! بل تُلحقنا بحرّان نأوى فيها إلى دارنا . . .

فقال : إذن تذهبن إلى حرّان . . .

ونهضت بنات مروان ونساؤه للخروج ، فاذا بسليمان بن هشام بن عبد الملك (بن عم مروان) ومعه أبو عون عبد الملك بن يزيد يدخلان على صالح وهما يحملان رأس مروان ، فأعولن بالبكاء وقلن :

— وأنت أيضاً ياسليمان . . !

فلما رآهن سليمان اشتد عليه وبكى ، فقال له أبو عون :

— ياسليمان الحمد لله الذى شفى صدرك قبل الموت من مروان . . !

والتفت اليه صالح بن على ، وقال :

— الحمد لله الذى أظفرك به ، ولم يظفره بك . هل لك يا أبا أيوب أن تذهب إلى أمير المؤمنين أبي العباس بكتابي و بالبردة والقضيب والمخصر، وبما هيأه الله على يديك وشفى به صدرك ، فيفعل بك خيراً ، و يعرف من نصحك ما أنت أهله ؟ !

فقبل سليمان بن هشام هذا القول ووقع من نفسه موقعاً ، وخرج إلى أبي العباس برأس مروان وشعار الخلافة وبعض الأسرى .

و بعث صالح بنات مروان و نساءه إلى « حرّان » فلما دخلنها وجدن من

قصرهن قد هدمه عبد الله بن على السفاح [1] عم أبى العباس وقائد جيوشه بالشام وفلسطين ، واحتوى ما فيه من متاع ورياش وأموال ، فعلت أصواتهن بالبكاء والنحيب . .

* * *

كان سليمان بن هشام الأموى موتورا من بنى عمه منذ ضربه الوليد ابن يزيد مائة سوط ، وحلق لحيته ، ونفاه إلى عمان وحبسه بها ، وكان الوليد صاحب لهو ومجون ، وقد أفسد على نفسه بنى عميه هشام والوليد بن عبد الملك ، وأحفظ عليه جنده من اليمانيين بانتصاره للنزاريين وعصبيته لهم ، وكانت اليمانية أكثر جند أهل الشام ، وأشدهم بأساً . وقد دبت بينهم وبين النزارية العصبية منذ أثارها الكميت بن زيد النزارى — بإيعاز من أبناء أبى طالب .

فقد أتى الكميت يوماً إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين فأنشده قصيدة مدح بها أهل البيت ، فلما بلغ فيها قوله :

وقتيـــل بالطف غودر منهم   بين غوغاء أمة وطغــــام [2]

بكى أبو جعفر ، وقال : يا كميت لو كان عندنا مال لاعطيناك ، ولكن لك ما قاله رسول الله (ص) لحسان بن ثابت ، «لا زلت مؤيداً بروح القدس ما ذببت عنا أهل البيت» .

(١) لقب السفاح هو لعبد الله بن على عم أبى العباس (على الأرجح) وليس لأبى العباس كما ذكر فى بعض كتب التاريخ

(٢) الطف موضع بالقرب من الكوفة ، وما أشرف من ريف العراق .

وخرج الكميت فأتى عبد الله بن الحسين بن على ، فأنشده ، فقال له : يا أبا المستهل أن لى ضيعة أعطيت فيها أربعة آلاف دينار . وهذا كتابها وقد أشهدت لك بذلك ؛ فأبى الكميت .

فقال له عبد الله :

— إن أبيت أن تقبل؛ وأردت عوننا فقل شيئاً تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها ما يعجِّل بعدونا .

فقال الكميت قصيدته التى فضل فيها نزاراً على قحطان، وأغضب بها اليمانية ومطلعها :

ألا حييت عنا يا مدينا وهل ناسٌ تقول مسلمينا

فرد عليه دعبل بن على الخزاعى بقصيدته التى مطلعها :

أفيقى من ملامك ياظعينا كفاك اللوم مرُّ الأربعينا

فكان ذلك سبب قيام العصبية بين النزاريين واليمانيين . وهى العصبية التى انحاز فيها الوليد بن يزيد ومروان بن محمد إلى قومهما بنى نزار وأنكرها سليمان بن هشام وانضم للخوارج ثم لجيوش العباسيين وقد استغلها العباسيون استغلالا سياسيا وحربياً فى تفريق جند بنى أمية وتمزيق شملهم والقضاء على دولتهم .

* * *

وقد كانت أيام مروان بن محمد أيام فتن وحروب بينه وبين سليمان بن

هشام ، وبينه وبين الخوارج ، و بينه و بين اليمانية ، وبينه وبين جيوش العباسيين .

ورأى العباسيون أن الفرصة مؤاتيـة ، وأن الوقت آن لظهورهم وقد أضعفت الفتن بنى أمية ، وانهكت الثورات والحروب مروان . وكانت الشيعة قد بايعت محمد بن على بن الحسين المعروف بابن الحنفية على طلب الخلافة بعد تنازل الحسن بن على عنها لمعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١ هـ وعرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقها فى ذلك ، فبقى ابن الحنفية إماماً لهم حتى أدركته الوفاة ، فأوصى بها إلى ابنه عبد الله بن محمد؛ فبايعته الشيعة فبلغ سليمان بن عبد الملك — وكان الخليفة فى ذلك الحين— فبعث اليه؛ وأعد له فى أفواه الطريق رجالا معهم أشربة مسمومة ، وأمرهم إذا خرج من عنده أن يعرضوا عليه الشراب فكان كلما مر بموضع قام إليه رجل يقول له :

— هل لك فى الشراب يا بن بنت رسول الله ؟

فكانت نفسه توجس منهم ، فيأبى قائلا :

— بارك الله لكم . . .

حتى إذا كان فى آخر الطريق خرج إليه رجل من خبائه ، فقال له :

— هل لك فى شربة من لبن يا بن بنت رسول الله .

فوقع فى نفسه أن اللبن مما لا يسم ، فشرب منه ثم مضى ، فلم يلبث أن أحس السم يسرى فى جسده ، فقال : « إنا لله و إنا إليه راجعون »

وطلب أن يذهبوا به إلى « الحميمة » حيث ينزل آل العباس ، فحملوه إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فأخبره ما أصابه وقال له :

— إن مت يا بن عمى ، فاحمل الأمر ، وأطلب الخلافة لأهل بيتك .

وأشهد على ذلك جمعاً من الشيعة ، ثم مات .

* * *

وكانت سنة مائة من الهجرة ، فكان بدء الدعوة لبنى العباس ، فبعث محمد بن على ، بعض أتباعه إلى خراسان ، وأوصاهم بالدعاء لبنى العباس من أهل البيت ، فلقوا من لقوا ، وأقاموا بها إثنى عشر نقيباً .

و بقى محمد بن على يبعث من الحميمة إلى خراسان بكتبه ورسله سراً ، حتى جاءته الوفاة ، فأوصى إلى ابنه إبراهيم بن محمد بالإمامة من بعده ، فاشتهر « بابراهيم الإمام » .

حمل ابراهيم دعوة أبيه ، وجعل يكاتب نقباءه سراً ، حتى نما أمرهم وكثر أنصارهم ، وأشخص أبا[1] مسلم الخراسانى رئيساً عليهم من قبله ، وكان شاباً شجاعاً داهية كيِّساً .

فاشتد على نقباء خراسان أن يولى إبراهيم على شيوخهم شاباً حديث السن ، وجاء النقباء ، فى موسم الحج ، فقابلوا إبراهيم الإمام بمكة ، واحتكموا إليه فى أمر أبى مسلم ، وتوليته إياه أمارة الشيعة بخراسان مع صغر سنه ...

وكان أبو مسلم قد اتصل بمحمد بن على ، والد « الإمام » يوم كان وكيلاً

---

(١) فى هذا الكتاب قصة عن أبى مسلم بعنوان « قائد العصر الذهبى » .

لإدريس بن إبراهيم الجعلى ، وعرف الإمام ولاءه لأهل بيته ، ووثق بكياسته وقدرته وحسن دهائه ، فاختاره رئيساً للشيعة فى خراسان فلما أقبل النقباء يحتكمون إليه فى أمره أبى عزله ، وقال لهم :

— من أطاع أبا مسلم ، فقد أطاعنى ، ومن عصاه ، فقد عصانى .

— ثم التفت إلى أبى مسلم ، وقال :

— يا أبا مسلم إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتى ، انظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم ، فوالله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحى من ربيعة ، فإنهم معهم ، وانظر هذا الحى من مضر ، فإنهم العدو الغريب الدار ، فاقتل من شككت فى أمره ، ومن وقع فى نفسك منه تهمة .

فقال أبو مسلم :

— أيها الإمام ، فان وقع فى نفسنا من رجل هو على غير ذلك فهل نحبسه حتى نستبينه ؟

قال إبراهيم :

— لا . . السيفَ السيفَ . . لا تتق العدو بطرف . . وايُّما غلام بلغ خمسة أشبار فاتهمته فاقتله .

وقام إبراهيم فأعطى أبا مسلم لواء يدعى « الظل » وراية تدعى « السحاب » فعاد أبو مسلم بمن معه إلى خراسان ، ونزل فى قرية « سفيذنج » وكانت ليلة الخامس من رمضان سنة ١٢٩ فعقد شيعة بنى

العباس لأبى مسلم اللواء على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً ، وعقدوا الراية على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً ، وهم يتلون :

« أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا و إن الله على نصرهم لقدير »

وتأوّلوا « الظل » بأن الأرض لا تخلو من الظل أبداً ، وكذلك سوف لا تخلو من خليفة عباسى ، وتأوّلوا « السحاب » بأنه منتشر فى الأرض، وكذلك دعوة بنى العباس سوف تنتشر فى سائر البلاد .

وكان على خراسان من قِبَل بنى أمية وقتئذ « نصر بن سيار » وكان بطلاً شجاعاً شاعراً ، ولكنه كان مشغولا بحرب اليمانية والخوارج ، فاستفحل أمر دعاة بنى العباس فى خراسان ، وعظم شأن أبى مسلم ، فجهر بالدعوة و بعث إلى نصر بن سيار كتاباً يقول فيه :

« من عبد الرحمن بن محمد إلى نصر بن سيار

« أما بعد ، فان الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عيّر أقواماً فى القرآن فقال :

« وأقسموا بالله جَهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الإمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ، استكباراً فى الأرض ، ومكرُ السيىء ، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنّة الأولين . فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا »

فاشتد هذا الكتاب على نصر، وهاله أن يبدأ أبو مسلم بنفسه، وقد كان بالأمس يخاطبه بلقب الأمير، وقال :

— هذا كتاب له جواب . . !

وبعث مولى له يقال له « يزيد » لمحاربة أبي مسلم، فهزمه أبو مسلم وأسره، ثم وجه أبو مسلم جيشاً إلى « مروروز » فاستولى عليها وقتل عامل نصر بن سيار، فرأى نصر تفاقم الأمر، ونمو الدعوة العباسية نمواً سريعاً، فبعث يستنجد مروان بن محمد ويحذره بأبيات منها :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

فكتب إليه مروان يعتذر بما يعانيه من حروب وفتن وثورات .

فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أن لا نصر عنده » .

وخرج بمن معه من « مرو » إلى نيسابور هارباً من جيوش أبي مسلم، فاتبعه، ففر إلى جرجان، فسار وراءه، فخرج منها إلى الريّ، ثم إلى ساوة بالقرب من همدان فمرض بها، ومات كمداً .

***

وكان إبراهيم الإمام يكاتب أبا مسلم الخراساني، ويوجه إليه بأوامره، وارشاداته مع رسله، وكان أبو مسلم يبعث إليه سراً بأنباء ظفره وما بلغه من نجاح دعوته، فوكّل مروان بن محمد عيوناً بالطرق، فقبضوا على رسول أتى من قبل أبي مسلم إلى إبراهيم بكتاب يخبره فيه بما آل إليه

أمره ، فأتوا به إلى مروان ، فتنـاول الكتاب وقرأه ، ثم رده إلى الرسول ، وقال :

— لا تخف . كم دفع لك صاحبك ؟

فقال الرسول : « كذا وكذا درهماً . . »

فقال له مروان :

— هذه عشرة آلاف درهم لك ، وامض بكتابك إلى إبراهيم ولا تخبره شيئاً مما جرى وخذ جوابه وائتني به .

ففعل الرسول وعاد بجواب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره بالجد والاجتهاد ، فقرأه مروان ، واحتبس الرسول ثم أرسل إلى عامل البلقاء أن أذهب إلى « الحميمة » وائتني بإبراهيم بن محمد موثقاً في حبل كثيف ، ففعل .

وجيء بإبراهيم بين يدي مروان ، فسأله عن الكتاب والرسول ، فأنكر فأخرجهما مروان له قائلا :

— يا منافق . . أليس هذا كتابك وهذا رسولك . !

وأغلظ له القول ، فأجاب إبراهيم بمثل قوله ، وقال له :

— يا مروان ما أظن الناس يرون منك حقاً في بغض بني هاشم .

فقال مروان :

— أدركك الله بأعمالك يا منافق . . إذهبوا به إلى السجن فان الله لا يأخذ عبداً عند أول ذنب . . إذهبوا به مذموماً . .

فدفعوه فى سجن حرّان ، وكان فيه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، والعباس بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ظفر بهما مروان ، فبقى معهما سجيناً .

ثم بعث إليه من قتلوه فى السجن ليلا .

***

بلغ آل العباس بالحميمة قتل عميدهم ابراهيم الإمام ، فخافوا نقمة مروان وخرج بهم كبيرهم « أبو العباس عبد الله بن محمد » إلى العراق ، وكان أخوه قد أوصى إليه بعده ، فلما وصل الكوفة وجد جيوش أبى مسلم قد دخلت العراق ، وغلبت عامله وأقامت حفص بن سليمان (أبو سلمة الخلال) على الكوفة فى المحرم سنة ١٣٢ وسموه « وزير آل محمد » إذ كان من قبل كاتباً لإبراهيم الإمام .

ولما وصل أبو العباس وآله الكوفة أنزلهم أبو سلمة فى دار آمنة ، وكتم أمرهم نحو شهرين ، ثم ظهر للناس أبو العباس ، فبايعوه بالخلافة فى ربيع الآخر سنة ١٣٢ ه .

و بلغ مروان مبايعة أبى العباس ، فأقبل بجيشه حتى نزل على نهر دجلة بالموصل وحفر خندقاً ، فبعث إليه أبو العباس بجيش على رأسه عمه عبد الله بن على ، ومعه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، فانهزم مروان على نهر الزاب وغرق كثير من جنده وأصحابه ، ففر إلى حرّان ، فأقام بها عشرين يوماً ونيفاً ، حتى دنا منه عبد الله بن على فرحل بأهله

وما بقى من جنده إلى قنسرين ومنها إلى حمص ، ثم إلى دمشق ، فأتبعه عبد الله ، ففر منها إلى الأردن ، ودخل عبد الله بن على بجيشه دمشق الشام ، فقتل عاملها الوليد بن معاوية واستولى عليها ثم اتجه إلى الأردن ، فخرج منه مروان إلى فلسطين فأتبعه عبد الله ، فرحل مروان من فلسطين إلى مصر ، فوجد أكثر أهلها قد اعتنقوا الدعوة العباسية ، فانحاز إلى الجيزة ، وأحرق الجسرين والدار المذهبة التى بناها عبد العزيز بن مروان ونزل بمن معه قرية بوصير ، فبعث إليه عبد الله أخاه صالح بن على ومعه سليمان بن هشام وعامر بن اسماعيل فى جيش لمحاربته بمصر ، فدخلوها ورحب بهم كثير من أهلها ، فالتقى بهم مروان على النيل ، ونشب القتال بين الجيشين طول اليوم فانهزم مروان وقتل فى المعركة . . . . . .

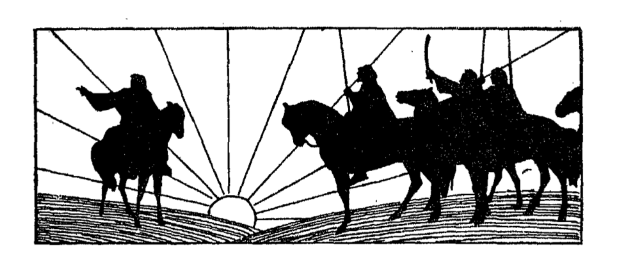
ودخل الكنيسة عامر بن اسماعيل بعد المعركة ، فإذا بخادم لمروان شاهر السيف يحاول الدخول إلى بنات مروان ونسائه ليضرب أعناقهن كما أوصاه بذلك سيده . . .

وهمّ عامر بقتله ، فقال الخادم : « دعونى ولا تقتلونى . . » ودله على ميراث رسول الله « وشعار خلفائه . . وساق بنات مروان ونساءه إلى صالح بن على . . فوسعهن بعفوه ، وبعث بهن إلى « حرّان » فلما دخلنها علت أصواتهن بالبكاء والنحيب . . .

وقدم سليمان بن هشام ويزيد بن هانىء إلى « أبى العباس[1] » ومعهما رأس مروان والبردة والقضيب والمخصر ، فلما وضعت الرأس بين يديه سجد وأطال السجود ثم نهض ، فنظر إلى رأس مروان وقال :

— الحمد لله الذى لم يُبق ثأرى قبلك ، وقبل رهطك . الحمد لله الذى أظفرنى بك ، وأظهرنى عليك . . ما أبالى والله متى طرقنى الموت . . !

وبذلك ولدت دولة بنى العباس ، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام .



(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب تولى الخلافة فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٢ هـ وكانت خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر وقد بنى مدينة الأنبار على نهر الفرات ، ودفن بها فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وكان جميل الوجه أبيض طويلا .

النّساء

وقعت حوادث هذه القصة فى قصر الخليفة
أبى العباس عبد الله بن محمد بمدينة الأنبار .
وهى تصور جانباً من أخلاقه وحياته العائلية
ورأيه فى النساء ، كما تصور جانباً من أسلوب
الحياة الاجتماعية فى ذلك الحين .

وجلس الخليفة أبو العباس فى قصره بالأنبار على ضفاف الفرات ، وأطل على مياهه الفضية الجارية ، وفوقها الجوارى الأعلام ، وقد أخذت الشمس تغرب فى جمال وجلال ، و بسطت أشعتها الذهبية على صفحة الماء . وفوق المروج الخضراء ، وكأنما نثرت عليها من اللؤلؤ حصباء ، فتلألأت وازّينت ، وازدادت فتنة وسحراً .

ونظر أبو العباس إلى جمال الله فى جمال الطبيعة ، وتمثل جلاله فى جلال قدرته ، ورأى عظمته فى عظمة خلقه ، فقال :

— سبحانك اللهم لك الملك وحدك لا شريك لك . . !

واشتاق إلى مجالسة أديب أريب . وعاوده الزهد فى متاع الدنيا ، وما فيها من لهو ولذة ، إذ كان عن ذلك مشغولا بشئون ملكه ، وهموم دولته ، ودعا بأبى بكر الهذلى ليؤانسه بحديثه ، فأقبل عليه ، وجعلا يتحادثان فى قدرة

الله وشئون الدين ، ثم جاء ذكر الدنيا والنساء ، وكان أبو العباس لا يميل إلى مجالستهن كثيراً ، ويؤثر قضاء فراغه فى الأدب والعلم والسياسة فقال :

— العجب ممن لا يريد أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلا...

— وما تأويل قولك هذا يا أمير المؤمنين . . ؟

قال أبو العباس :

— يترك الرجل مجالسة عاقل أريب ، ويدخل إلى امرأة أو جارية ، فلا يزال يسمع لغواً ، ويشهد لهواً ، ويرى غواية وزخرفاً . . .

فقال أبو بكر :

— أصبت يا أمير المؤمنين ، وبذلك فضلكم الله يا بنى هاشم على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين . . .

وعصفت الريح فأذرت تراباً وقطعاً من الحجارة والآجر من سطح الدار إلى المجلس ، ففزع الحاضرون ، وفزع أمير المؤمنين . وأبو بكرٍ الهذلى شاخصٌ نحو أبي العباس لم يتغير كما تغير غيره ، ولم يهرول كما هرول سواه فقال له أبو العباس :

— لله أنت يا أبا بكر . لم أر كاليوم . . . أما راعك ما راعنا ؟ . .

فقال الهذلى :

— إن الله إذا تفرد أحدٌ بكرامته ، وأحب أن يبقى له ذكرها جعل تلك الكرامة على لسان نبي أو خليفة . وهذه الكرامة قد خُصصت بها يا أمير المؤمنين ، فمال إليها قلبي ، وشُغل بها فكرى ، فلما انقلبت

الخضراء على الغبراء ما شعرتُ بها ، ولا أحسستُ منها فزعا . . !

فقال أبو العباس :

— أحسنتَ يا أبا بكر ، لئن بقيت لك لأرفعنّ منك وضيعاً لا تُطيف به السباع ، ولا ينحطُّ عليه العُقاب .

ووصله بجائزة سنية ، ثم انفضّ المجلس ، وانصرف الهذلى ، وما كاد يبرح دار الخلافة حتى أقبل خالد بن صفوان — وكان أبو العباس قد بعث فى طلبه ، وأعجبه ما سمعه عن بلاغته وحسن مؤانسته ، فلقيه الهذلى فقال له :

— أهلا بواعظ هشام ، ومساير الأيام ومشايع الحكام .

فقال خالد :

ومرحباً بأنيس الإمام ، ومزخرف الكلام ، ومصيب المرام . . .

واستأذن خالد بن صفوان على أبى العباس فأذن له ، فدخل ، فإذا بالخليفة جالس وحده ، وقد تهيأ لحديثه ، واهتم بأمره ، فلما رآه رحب به وأدناه ، ثم قال له :

— يا خالد قد وعظت هشام بن عبد الملك حتى كدت تخرجه عن ملكه ، وتلحقه بالزاهدين ، وما أريد أن أتخلى عن أمرى ، وقد رفعته السيوف ، وسقته الدماء . وأرى أن هذا الأمر لا يقوم لبنى العباس إن أنا فرّطتُ فيه وانصرفتُ عنه . فما تقول فى رجل يتبرم بنفسه ، ويريد لها مُنفرجاً ؟

فقال خالد :

— يا أمير المؤمنين إنى فكرت فى أمرك وسعة ملكك ، وتفضيلك منادمة الرجال على النساء ورأيت أنك قد ملّكت نفسَك امرأة واحدة ، تتحكم فيك وأنت الخليفة ، وتفرض إرادتها عليك، وتحرمك مما أحل الله لك من مُتع الدنيا ، ولذات الحياة ، فان مرضتْ مرضتَ و إن غابتْ عنك غبتَ عن النساء ، وصرفتَ نفسك عن سواها من كرائم الأحرار ، وكواعب الجوارى ، وما لهن من جمال وفتنة وحياة ناعمة وأحوال ..!

فقال أبو العباس :

— وكيف ذلك ياخالد . . ؟

فقال : إن منهن يا أمير المؤمنين الطويلةَ الفرعاء ، والدقيقةَ الهيفاء . والغضّة البيضاء . والبضّة السمراء ، من أحرار الشام ومولدات المدينة ، يفتن بجمالهن ، و يأسرن بمؤانستهن و يسابن بحديثهن القلوب .

فقال أبو العباس وقد بدا عليه الاهتمام . — إيه يابن صفوان . . .

فقال خالد :

— و إن من نساء البصرة وفتيات الكوفة المهفهفةَ الغيداء ، والمخصّرة الحسناء ، والرشيقةَ العيناء ، والقسيمةَ الدعجاء ، ذوات الألسن العذبة ، والقدود المستضعفة ، والأعطاف الواهنة المستظرفة.

فقال أبو العباس :

— ايه يابن صفوان . .

قال :

— و إن من الفارسيات النحيفة الخلابة ، والسمينةَ الجذابة ، واللطيفة المؤنسة . والرقيقة المبهجة ، ذوات الأعين المكحّلة والأصداغ المزرفنة ، والأزياء الملونة ، والنظرات النافذة الفاتنة .

فقال أبو العباس :

— أحسنت يابن صفوان ، ثم ماذا ؟ . .

فقال خالد :

— و إن من التركيات الغانية الشقراء ، والمليحة الحمراء ، والوضيئة الرائعة ، والوسيمة البارعة ، والناعمة الناضرة ، والمعطال الساحرة .

فقال أبو العباس :

— أحسنت والله يابن صفوان . . ثم ماذا ؟

قال :

— وأن من المصريات الفارعةَ النجلاء ، والخمرية اللعساء ، والسمينة المكْتنزة ، والرقيقة المتّزنة ، والصبيات الكواعب ، والفتيات الضاحكات اللواعب ، ذوات اللحاظ السارق ، والإغراء الفائق ، والحب المتأجج الدافق .

فقال أبو العباس :

— ويحك يا خالد . . ما نفذ إلى نفسى كلام أحسن مما سمعته منك اليوم ، فأعدْ عليّ كلامك ، فقد وقع منى موقعاً حسناً . . .

فأعاد عليه خالد أحسن مما قاله ، ثم انصرف .

*
* *

انصرف خالد بن صفوان من المجلس وبقى أبو العباس واجماً مفكراً فيما سمع ، ومرت مدة زادته وجوماً وتفكيراً ، ودخلت عليه زوجته أم سلمة المخزومية ، فوجدته فى هذه الحال ، فقالت له :

— مالك يا أمير المؤمنين ؟ هل حدث أمر تكرهه ، أو أتاك نبأ ارتعت له ؟

قال :

— لم يكن من ذلك شىء . .

— إذن ففيم تفكر ، وماذا يهمك ؟

فسكت أبو العباس ، وجعل ينزوى عنها ، فألحّت عليه ، فأعرض ، فازدادت إلحاحا ، ولم تزل به حتى أفضى إليها بما قاله خالد بن صفوان ، فقالت :

— وماذا قلتَ لابن الفاعلة ؟

قال :

— سبحان الله ينصحنى وتشتمينه ؟ ! . .

قالت :

— أو تظنها نصيحة ؟ . .

قال :

— نعم . .

فصاحت أم سلمه :

— أوه . . أو لم تقسم لى ألا تنظر إلى سواى ولا تقرب غيرى ؟ . .

وخرجت باكية مغضبة . .

* * *

كانت أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومى هى الزوجة الوحيدة التى اصطفاها أبو العباس لنفسه واصطفته لنفسها قبل أن يتولى الخلافة ، وقد كانت زوجة لهشام بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى ثم مات عنها فبينما هى ذات يوم إذ مر ببابها أبو العباس ، وكان شاباً جميل الوجه ، طويل القامة ، وسيم الطلعة ، فسألت عنه ، فنُسب لها ، فأرسلت إليه مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، فقال لها :

— أنا مملق لا مال عندى ، فلا أستطيع الزواج .

فبعثت إليه بسبعمائة دينار ، وأوعزت له أن يتقدم بخطبتها إلى أخيها ، فقبل أبو العباس وأسرع ، فقدم له خمسمائة دينار مهراً لها ، وبعث إليها هدايا بمائتى دينار ، وتزوجها وحظيت عنده ، وأقسم لها ألا يتزوج سواها ، ولا يتسرى ولا يقرب جارية أو حرة غيرها ، فولدت منه محمداً وريطة ، وغلبت عليه غلبة شديدة ، فصار لا يقطع أمراً إلا بمشورتها ، ولا يأتى شيئاً إلا إذا رجع إليها حتى أصبحت ، قبل الخلافة سيدة الأسرة ، وبعد الخلافة سيدة الدولة .

وكانت أم سلمة تعرف خالد بن صفوان منذ كانت زوجة لهشام بن عبد الملك ، وكانت تنكر عليه إغراءه لهشام ، وتقربه منه طمعاً فى أعطيته ، وقد نقمت منه ما أراده بزوجها من الخروج عن الخلافة والزهد فى الحياة ، والانقطاع إلى العبادة ، فقد حضر خالد مجلس هشام بن عبد الملك يوماً فقال له هشام :

— حدثنى يابن صفوان من أخبارك .

فقال خالد :

— إنى لا أجد شيئاً أبلغ من ذكر قصة لملك خلا من الملوك ، فإن أذن أمير المؤمنين أكرمه الله حدثته . .

فقال هشام :

— هات يابن صفوان . .

فقال :

— كان فيما خلا من الزمان ملك بسط الله له فى الجسم والمال ، فخرج ذات يوم متنزهاً إلى بعض ضياعه ، وصعد جوسقاً له ، فأشرف على أرض قد أخضلها ربيع ضاحك كان شبيهاً بربيع عهدك هذا يا أمير المؤمنين فى خصبه وعشبه ، وكثرة رخائه وخيره ، وابتسام أزهاره ، وحلاوة مطلعه وحسن بره ، فنظر إلى ما أعطاه الله من الضياع والأموال والمتاع ثم قال لمن حوله :

— لمن كل هذا ؟

فأجابوا :

— لك أيها الملك . . !

فقال :

— هل رأيتم مثل ما أنا فيه ، وهل أوتى أحد أحسن مما أوتيته ؟ . .

فأجابه رجل من أهل العلم والحكمة :

— أرأيت أيها الملك هذا الذى أعجبك ، وعظم به كبرك . . هو شىء كان لك ولم يكن لغيرك ؟ . . أو هو كان لغيرك فزال عنه إليك ، ثم هو سائر إلى سواك كما صار إليك ؟ !

قال الملك :

— بل هو كما ظننت ومثَّلت . .

فقال الحكيم :

— فإنى أراك أعجبت بما يفنى ، وزهدتُ فيما يبقى ، وسررتُ بالقليل

قال الملك :

— ويحك . . فكيف المطلب وأين المهرب ؟

قال الحكيم :

— إحدى خصلتين ، إما أن تقيم فى ملكك تعمل بطاعة ربك على ما ساءك وسرك ، وإما أن تضع تاجك ، وتذكر ذنوبك ، وتلحق بالخلاء فتعبد الله حتى يوافيك أجلك فتظفر بما يصغر دونه ملك الدنيا .

فقال الملك :

— سأرجع إلى نفسى فى الاختيار .

وكان اليوم التالى ، فوضع الملك تاجه ، ولبس أطماره ، ولحق بالجبل . . .

فلما سمع هشام بن عبد الملك هذه القصة من خالد نكّس رأسه طويلا وبقى مفكراً مغموماً ، ودخل على زوجته أم سلمة ، فقالت له :

— مالى أراك مفكراً مهموماً يا أمير المؤمنين ؟

فسكت وأبى أن يخبرها ما فى نفسه ، فألحت عليه ، فأخبرها ما قاله خالد بن صفوان ، فبعثت إليه تقول :

— يابن الفاعلة ، أفسدتَ على أمير المؤمنين لذتَه ، ونغَّصت عليه شهوتَه ، وزهدته فى متاع الدنيا ونعيم الملك .

فأجاب الرسول :

— قل لأم سلمة ، ما أردت إلا خيره ، فإنى عاهدت الله ألا أخلو إلى خليفة أو ملك إلا نبهته ونصحته . . !

***

وتوفى هشام بن عبد الملك ، وانتقلت أم سلمة بعده إلى أبى العباس ، وانتقلت الخلافة إليه ، وأصبحت زوجة خليفة عباسى ، بعد ما كانت زوجة خليفة أموى ، وصار لها عند أبى العباس الحظوة الكبرى ، والمكانة العظمى ، وكان يتفاءل بها ، ويستمع لآرائها كثيراً على الرغم من سوء ظنه بالنساء ورأيه فيهن ، وانصرافه عنهن ، وتفضيله مجالس الرجال .

وانتقل خالد بن صفوان مع الأيام ، فصار جليساً لأبى العباس كما كان نديماً لهشام بن عبد الملك . و بعث أبو العباس فى طلبه ، فحضر إليه وجعل يصف له محاسن النساء ، و يروى له أوصاف العربيات والفارسيات والتركيات والمصريات ، وأبو العباس يستزيده حتى قضى فى ذلك وقتاً ، ثم نهض منصرفاً ، فبقى الخليفة مكتئباً مهموماً ودخلت عليه أم سلمة فرأته فى هذه الحال ، فسألته وألحت فى سؤالها حتى أنبأها ما قاله خالد وما قدم إليه من نصيحة ، فقالت فى دهشة وجزع :

— أو تظنها نصيحة . . ؟ !

وخرجت باكية مغضبة حاقدة . . . وكان خالد بن صفوان قد خرج من مجلس أبى العباس مسروراً مبتهجاً بما أدخله على نفس الخليفة من البهجة والانشراح ، وما رأى من استحسانه لقوله ، و إعجابه بوصفه ، و بينما كان جالساً فى داره إذ جاءته غلمان أم سلمة ، فظن أن جائزة سنية مقبلة عليه من أمير المؤمنين فأسرع لاستقبال الغلمان ، فقالوا فى اهتمام :

— أين خالد بن صفوان ؟

فأجاب :

— هأنذا خالد . . . .

فما كاد يتم قوله ، حتى سبق إليه أحدهم بهراوة ، فضربه ضربة قوية ، فوثب خالد صائحاً هارباً إلى داخل داره وأغلق بابه ، وامتنع عليهم ، ومكث أياماً لا يخرج منها ، وطلبه أبو العباس مراراً فلم يذهب ، فبعث

اليه من جنده رجالاً اقتحموا داره ودخلوا عليه فى مخدعه ، ففزع لمرآهم وظن أنهم قاتلوه ، فقالوا له :

— لا تخف ، نحن رُسُل أمير المؤمنين ، أمرنا أن ندعوك إليه .

فنهض متوجساً ، وذهب معهم ، فلما دخل على أبى العباس رحب به وأذن له بالجلوس ، فنظر خالد فإذا باب عليه ستور قد أرخيت ، وحركة خلفه فأيقن أنها أم سلمة وجواريها .

فقال أبو العباس :

— يا خالد لم أرك منذ أيام ، فما منعك ؟ . .

— كنت عليلا يا أمير المؤمنين .

— لا ، وشفاك الله . . .

ثم قال أبو العباس :

— يابن صفوان قد رويت لى من أوصاف النساء ما أحببته وما لم يطرق مسمعى قط ، فأعده علىّ فأنى إليه مشوق .

فقال خالد وهو خائف يترقب :

— نعم يا أمير المؤمنين ، قد رويت لك أن العرب اشتقت اسم « الضرة » من الضر ، لأنها تضر سواها ، وتتعب زوجها . وأن الرجل ما تزوج غير واحدة حتى كان فى جهد وجهاد ، وهموم شداد .

قال أبو العباس :

— ويلك لم يكن هذا فى الحديث . . !

فقال خالد :

— بلى يا أمير المؤمنين . وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافى القدر يغلى عليهن ويشقى بكيدهن . . !

قال أبو العباس :

— برئتُ من قرابتى برسول الله إن كنت سمعت هذا منك . . !

فقال خالد :

— وأخبرتك أن الأربع من النساء شرٌّ وبلاء لصاحبهن ، يشيّبنه ، ويسقمنه ، ويهرمنه ، ويدفنه حيا . . !

قال أبو العباس :

— ويلك . . . وتكذبنى أيضاً . !

فقال خالد :

— وتريد قتلى يا أمير المؤمنين ! . . .

فابتسم أبو العباس ، وقال : — لا . واستمر فى حديثك . . .

قال :

— وأخبرتك أن أبكار الجوارى الحسان رجال فى أزياء نساء . . !

فضحك أبو العباس ، وضحكت من كن خلف الستور ضحكا سمع بالمجلس . . !

ثم قال خالد :

— نعم ، وأخبرتك أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وأنت عندك ريحانة

ما مثلها ريحانة من الرياحين ، وتطمع يا أمير المؤمنين فى أحرار النساء وغيرهن من الإماء ؟ ! . .

فقيل له من وراء الستور :

— صدقت يا خالد والله وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ، وقد نسيه ! . .

فصاح أبو العباس فى خالد :

— قم قاتلك الله ، وأخزاك ، وفعل بك وفعل . . .

فقام خالد مهرولاً ، وقد أيقن بالحياة . . . وما كاد يستقر فى داره حتى لحق به رسل أم سلمة المخزومية ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتخت ، وبرذون ، فقدموها له هدية منها ، وهم يقولون :

— هذا جزاء (صدقك) . . . و إياك وأوصاف النساء . . . !



الشاعر

هذه قصة شاعر كبير من مشاهير الشعراء العباسيين هو أبو دلامة زندبن الجون وهى تكشف عن نواح طريفة من حياته ، كما تريك لوناً من الأدب والفكاهة وجانباً من تاريخ الحرب والسياسة فى هذه الدولة .

توفى أبو العباس عبد الله بن محمد أول خلفاء العباسيين ، وتولى الخلافة بعده أبو جعفر المنصور (١) ، ووفد الناس على الخليفة القائم يعزونه فى الخليفة الراحل ، ودخل الشاعر أبودلامة (٢) زَنْد بن الجوْن فيمن دخل ، واستأذن المنصور فى إنشاد قصيدة رثى بها أبا العباس وعدد فيها مناقبه ، فأذن له ، واستمع إليه ، حتى قال أبودلامة :

مات الندى إذ متّ يا بن محمدٍ فجعلتُه لك فى الثراء عديلا

إنى سألت الناس بعدك كلهم فوجدتُ أسمح من سألتُ بخيلا

فتغير وجه المنصور ، وقال فى غضب :

---

(١) ابو جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس تولى الخلافة يوم ١٢ ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ وعمره ٤١ سنة . وتوفى بمكة ودفن بهايوم ٦ ذى الحجة سنة ١٥٨ وهو ابن ٦٣ سنة .

(٢) ابودلامة كوفى المنشأ وكنى كذلك لأن له ولداً يدعى دلامة وقيل كان بمكة جبل يدعى أبو دلامة فكنى به وكان شاعراً لأبى العباس، والمنصور والمهدى. ومات سنة ١٦١هـ.

— وماذا أبقيت بعد ذلك . . لئن سمعتك تنشد هـذه القصيدة لأقطعن والله لسانك . . !

فقال أبو دلامة :

— يا أمير المؤمنين .أن أخاك أبا العباس كان لى مُـكرِماً . وقد جاء بى من البدو ، فقربنى ، ورفع شأنى . فلما مات غلبنى على صبرى ، وسلبنى عزيمتي ، فنظمت مالم أتأمله ، وقلت مالم أفعله . فلو شئتَ أقلتنى بعفوك ، وأنهضتنى بفضلك ، وتغمدتنى بحلمك ، وقلت كما قال يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

— قد أقلناك أبا دلامة ، فانصرف . غفر الله لك

فطوى أبو دلامة قصيدته ووقف ولم ينصرف ، فقال له المنصور :

— هل من حاجة تريدها ؟ . . . .

— نعم يا أمير المؤمنين ، فقد كان أبو العباس وهو مريض أمر لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً ، وتوفى ولم أقبضها . . !

فدهش المنصور لجرأته على ذلك ، وسأله :

— ومن يعرف هذا الدين يا أبا دلامة ؟ . . .

— هؤلاء يا أمير المؤمنين ، يعرفون ، وأظنهم لايجحدون . . !

وأشار إلى جماعة من الحاضرين ، فنهض بعضهم ، وقالوا :

— صدق أبو دلامة ، نحن نعلم ذلك يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور لخازنه ، وهو مغيظ :

— يا سليمان ادفعها إليه ، ثم سيِّره مع جيشنا فى حـرب الطاغية

السفاح عبد الله[1] بن على . و إياك أن يقعد دونها، أو يتخلف عن العسكر

فوثب أبو دلامة ، وتعلق بأذياله ، وقال :

— إنى أعيذك يا أمير المؤمنين أن أخرج مـع جيشك ، فوالله إنى لمشؤم ، وأخشى أن يمس العسكر شؤمى . !

— أمض يا هذا كما أمرت فإن يمنى يغلب شؤمك ، وطالع سعدى يدفع نحسك . . .

— ما أحب لك يا أمير المؤمنين أن تجرب هـذه التجربة ، فإنى لا أدرى أيهما يغلب و يدفع : أيمنك أم شؤمى ،وسعدك أم نحسى ؟

— إنى لا أخشى شيئاً ، فامض لسبيلك مع الجند.

— ولكنى يا أمير المؤمنين بنفسى أوثق ، وأطول تجربة . وأن اسمى يحمل شؤم هذا الجبل المسمى به فى مكة ، وكانت آباؤنا فى الجاهلية تئد فيه البنات .

— دعنى من هذا ، فما لك من الخروج بُدّ . . .

— إنى أصدقك الآن يا أمير المؤمنين ، فقد شهدت تسعة عشر جيشاً كلها هزمت بشؤمى . فإن شئت —على بصيرة — أن يكون عسكرك العشرين ، فافعل . . .

فضحك أبو جعفر المنصور ، واستغرب فى الضحك ، ولكنه عاد فقـال له :

---

(١) كان عبد الله بن على عم أبى جعفر المنصور قد خرج عليه ، وأخذ يدعو لنفسه بالخلافة

— لا بد لك من الخروج ، فإن عصيت أمرى ضربت عنقك . . .

***

حمل أبو دلامة النقود والثياب ، وذهب إلى أهله ، فدفعها إليهم وودعهم وهو كئيب حزين وكان عبد الله[1] بن على قد ولاه أبو العباس قبل وفاته بلاد الشام سنة ١٣٥ هـ ، فلما توفى وتولى الخلافة أبو جعفر المنصور ، طمع عبد الله فى الخلافة ، وخلع ابن أخيه وبايع لنفسه ، فأرسل إليه المنصور جيشاً بقيادة أبى مسلم الخراسانى . فقصد إليه من مدينة الأنبار على نهر الفرات ، وخرج عبد الله بجيشه إلى نصيبين وخندق فيها . فنزل أبو مسلم فى موضع آخر ، وتظاهر بأنه لا يريد لقاءه ، ولا يطلب قتاله ، وأرسل إليه رسولا يقول له فى مكر ودهاء :

— إنى لم أومر بقتالك ، ولكن أمير المؤمنين ولاّنى بلاد الشام . وإنى أريدها ، ومالى عندك من شىء .

فقال أصحاب عبد الله :

— كيف نقيم معك يا عبد الله ، وهذا يأتى بلادنا ، وفيها حرمنا ، فيقتل من قدر عليه من رجالنا ، ويسبى نساءنا وأبناءنا ، ولكننا نعود إلى الشام ، فنمنعه ذلك .

فقال عبد الله :

— إنها الخديعة . . والله ما يريد أبو مسلم الشام ، وإنما يريدنا ، وما وجّه إلا لقتالكم . . .

---

(١) هو الملقب بالسفاح على الأرجح . وليس أبو العباس أول خلفاء العباسيين ، صاحب هذا اللقب .

فرفضوا وأبوا إلا المسير إلى الشام ، وتركوا موضعهم وخنادقهم ، وجاء أبو مسلم فنزل فيها ، فلما علم عبد الله قال لأصحابه :

— ألم أقل لكم إنه يريدنا ، ولا يريد الشام ؟ ! . . .

وعاد معهم إلى أبي مسلم ، فوجده قد امتلك زمام المعركة ، وأصبح سيد الميدان . وبدأ القتال بين الفريقين ، وتنازلت الفرسان ، والتحم الجيشان ، واشتجرت الهيجاء ، واستعرت الغبراء . ورأى أبو دلامة كيف تفعل الأسنة والنبال بنفوس الرجال ، فتفترس الآمال . فأجفل وتوارى ، ورآه أحد أمراء الجيش ، فدعاه لمبارزة فارس من جيش عبد الله ، فاعتذر ، فألح عليه وهدده ، فقال :

— إنى أنشدك الله أيها الأمير فى دمى . . .

— والله لتخرجن اليوم إليه ، أو لأقتلنك . . .

— أيها الأمير إنه أول يوم لى من الآخرة ، وآخر يوم لى من الدنيا . وما أحسب أنى راجع . . .

— أتجبن يا أبا دلامة عن القتال ، وتخشى الموت ؟ . . .

— كلا أيها الأمير ، فما أنا بالجبان ، ولا أخشى الموت أبداً . .

— إذن ، فعلام تقعد عن المبارزة ؟

— إننى جائع أيها الأمير ما شبعت منى جارحة ، ولا أريد أن أنازل هذا الفارس وأنا على هذه الحال ، فمر لى بشىء آكله ، ثم أخرج إليه . . !

فأمر له أمير الجيش برغيفين ودجاجة ، فأخذ ذلك ، وبرز فى الصف .

فلما رآه الفارس الخارجيُّ أقبل نحوه ، وتقدم لمبارزته ، فقال له أبو دلامة :

— على رسلك يا هذا . . كما أنت . . .

فوقف الخارجي ، فقال له أبو دلامة :

— أتقتل يا هذا من لا يقاتلك ؟

— لا ، ولكني أقاتل من يقاتلني ، وأقتله .

— سبحان الله أتقتل رجلا على دينك ، وتستحل دمه ؟

— لا . فاذهب عني أبا دلامة إلى لعنة الله . . .

— كلا . لا أفعل أو تسمع مني .

فقال الخارجي :

— قل ما شئت . . .

فقال أبو دلامة :

— هل كانت بيننا عداوة من قبل ؟ أو هل تعرفني بحال تُحفظك عليّ ، أو كانت بين أهلي وأهلك تِرةٌ ، أو هل سلبت منك مالاً ، أو أصبت لك متاعاً ، أو هتكت لك عرضاً ، أو قلت فيك قولا يغضبك ؟

— لا والله أبا دلامة . . .

— ولا أنا ، والله أيها الرجل ، وإني أدين بدينك ، ولا أريد بك سوءا .

— يا أبا دلامة جزاك الله خيراً . . فانصرف . . .

— لا ، حتى تأكل معي ، فإني أحب موا كلتك لتتوكد المودة بيننا ، ويرى عسكرك وعسكري هوانهم علينا . . . !

— لا بأس ، فلنأكل على بركة الله .

وأخرج أبو دلامة الرغيفين والدجاجة ، وأخذا يأكلان ، ورجال الجيش من حولهما ينظرون و يضحكون . . فلما استوفيا ، ودَّع كل منهما صاحبه ، وعاد أبو دلامة لقائده فى زهو يقول :

— أما أنا، فقد كفيتك قِرنى ، فمرْ غيرى أن يكفيك قرنه كما كفيتُك

فضحك القائد ، وأعفاه . . .

***

بقيت الحرب أشهراً بين أبى مسلم الخراسانى ، وعبد الله بن على ، حتى ظهر جيش أبى مسلم ، وضعف جيش عبد الله ، فقال لأحد أصحابه :

— ماترى ؟ . . .

— أرى والله أن تصبر ، وتقاتل حتى تموت ، فإن الفرار قبيح بمثلك ، ومن قبــل عبته على مروان بن محمد . فقلت قبح الله مروان . جزع من الموت ففر . . !

فقاتل عبد الله قتالاً شديداً ، ولكن أبا مسلم ظهر عليه ، وكشف جيشه ، وأسر فلوله ، وغنم متاعه وخزائنه ، ففر إلى البصرة حيث نزل عند أخيه سليمان بن على عاملها وقتئذ فأكرمه وواراه عن أعين المنصور .

بقى عبد الله متوارياً زمناً بالبصرة ، حتى علم المنصور ، فطلب من عمه سليمان أن يرسله إليه فتشفّع له ، وطلب له الأمان ، فأبى حتى يقدم إليه ، فألح سليمان فى الشفاعة والأمان ، فأمّنه المنصور ، واستدعاه إليه ، فأذعن عبد الله، وذهب إلى الخليفة، فلما دخل عليه سلم وجلس ، فقال له المنصور:

— يا عمى واسيناك ، وأحسنّا إليك ، ووصلنا رحمك ، وحفظنا حرمتك ، فحسدتَ وبغيت ، وجحدت واعتديت .

— إنى لم أحسدك يابن أخى على نعمة أسبغها الله عليك وعلى آل العباس ، ولم أبغ بك شراً ، وما جحدتُ لكم فضلا ، ولكن أبا مسلم أوغر نفسك منى ، كما أوغر نفس أبى العباس من قبل ، وشاء أن يكون له ملك الشام إلى ملك خراسان ، ثم يطمع فيك بعد ذلك ، فيكون له ملك بنى العباس كله . وقد علمتَ كيف يدعى أنه من نسل عبد الله بن عباس ، وقد أخذ خزائنى ومتاعى وجاريتى وأرسلها إلى خراسان ولم يرسلها إليك يا أمير المؤمنين .

— لكنك أعجبت أنت بنفسك ، وحبست عنا الخراج ، وخلعت الطاعة ، وقربت موالى بنى أمية ، وأطمعتهم فينا وحاربوا فى جيشك .

— إننى لم أحبس عنك خراجاً يا أمير المؤمنين ، ولكنى حفظته ليوم تحتاج فيه إليه وما قرّبت موالى بنى أمية ، ولكننى سددتُ ثغورهم ، وكفيتك شرهم .

— يا عمى لا تقل هذا ، فإنى أعلم بأمرك منك ، ولقد رأيت براً برحمك أن أحبسك حبساً هيناً رفيقاً ، حتى تؤدب نفسك ، ويبدو ندمك

وأمر المنصور بحبسه فى بيت بناه له وجعل أساسه من ملح . فلما كان ذات يوم أرسل الماء حوله ، فذاب الملح وسقط البيت عليه ، فمات ، وقيل مات قضاء وقدراً . . !

***

عاد أبو دلامة فيمن عاد من الجيش المنتصر على عبد الله إلى الأنبار ، وبقي زمناً بعيداً عن المنصور ، متحامياً له ، متجافياً سبيله ، حتى قَتل المنصور أبا مسلم الخراسانى فوفد عليه يهنئه مع المهنئين والمداهنين ، وأنشد قصيدة يمدحه ويذم أبامسلم ويقول :

أبا مسلم خوفتنى القتل فانتحى ... عليك بما خوفتنى الأسدُ الوردُ
أبا مسلم ما غيرَّ الله نعمـةً ... على عبده حتى يغيرها العبدُ

فارتاح المنصور إلى قوله ، ورضى عنه وأكرمه ، وأمر بإنشاد هذه القصيدة فى محفل كبير ، ففعل ، فقال له المنصور : « سل ماتريد » فقال :

— عشرة آلاف درهم يا أمير المؤمنين . ولو شئتَ جعلتها دنانير .

فأمر له بها « دراهم » ! . ولما خلا به قال له :

— أما والله لو طمعت فى غيرها لقتلتك ..!

وكان المنصور معروفاً بالاقتصاد وحب المال ، وكان أبو دلامة فقيراً مسرفاً ، وكانت له زوجة وأولاد ، فما لبث أن أنفق العشرة الآلاف ، وعاد إلى المنصور يشكو حاجته فى قصيدة قال فيها :

إن الخليط[1] أجدُّوا البين فانتجعوا ... وزوّدوك خبالا بئس ما صنعوا

فقال المنصور : « وبئس ما صنعت » . فقال أبو دلامة :

والله يعلم أن كادت لبينهمو ... يوم الفراق حصاةُ القلب تنصدعُ

فقال المنصور : « صدع الله حصاتك » فقال أبو دلامة :

عجبتُ من صبيتى يوماً وأمهمو ... أمّ الدلامة لما هاجها الجزعُ

(١) الخليط الأصحاب ، والقوم الذين أمرهم واحد .

فقال المنصور : « ولماذا الجزع . ألم تذكر كتاب الله ؟ » فقال أبو دلامة :

ذكَّرتها بكتاب الله حُرمتنا ولم تكن بكتاب الله تنتفع

فاخرنطمت[1] ثم قالت وهى مغضبة

أأنت تتلو كتاب الله يالكعُ

فضحك المنصور وقال : «صدقتْ والله يالكع ، ثم ماذا قالت ؟ » فقال أبو دلامة قالت :

أُخرج لتبغ لنا مالا ومزرعة كما لجيراننا مال ومزدرعُ

واخدع خليفتنا عنا بمسألة إن الخليفة للسؤال ينخدعُ

فضحك المنصور ضحكا طويلا وقال :

— ارضوا أم الدلامة عنى ، واكتبوا لها بمائتى جريب عامرة ، ومائتى جريب[2] غامرة .

فقال أبو دلامة :

— أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة ما بين الحيرة والنجف وإن شئت زدتك .

فضحك المنصور وقال :

---

(١) فاخرنطمت رفعت أنفها واستكبرت .

(٢) « الجريب » ثلاثة آلاف وستمائة ذراع من الأرض ، وقيل عشرة آلاف . « والغامرة » الأرض التى لا نبات فيها .

— اجعلوها كلها عامرة .

* * *

استطاب أبو جعفر المنصور مجالس أبي دلامة ، ورضى عنه وقربه ، وتغاضى عن مساوئه وفساد دينه ، وتجافى مآخذه للطف محله ، وخفة ظله ، وفصاحة لسانه ، وجمال بيانه .

وأتى شهر الصيام ، فأراد الخليفة ألا يظهر نديمه وشاعره فى هذا الشهر بمظهر المنتهك للحرمات ، المضيّع للشعائر ، فأمره ألا يأتى منكراً فى رمضان وقال له :

— عليك بالقيام معنا فى شهر رمضان ، ولا تقعد دون ذلك .

— أفعلُ إن شاء الله . .

— فإن تأخرتَ ، أو شربتَ الخمر ، أو أتيتَ منكراً غيرها ، علمتُ ، ووالله لأحُدنَّك . . .

— سمعاً يا أمير المؤمنين وطاعة . والبليةُ فى شهر ، خيرٌ منها طول الدهر

ولزم أبو دلامة المسجد يصلى و يصوم ، وقد وكلّ به أبو جعفر ولى عهده محمد المهدى . ليراقبه ، فشق ذلك على أبي دلامة ولجأ إلى زوجة المهدى ريْطة بنت أبى العباس ، ورفع إليها أبياتاً جاء فيها :

أبلغا ريطة أنى كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه اللـ ـه وأوصى بى اليها
وأراها نسيتنى مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى مشية ما أشتهيها

قائداً لى ليلة القد ر كأنى أبتغيها
تنطح القبلة شهراً جبهتى لاتأتليها
ولقد عشت زماناً في فيافىّ وجيها
ماأبالى ليلة القد ر ولا تسمعنيها
فاطلبي لى فرجاً من ها وأجرى لك فيها

فلما قرأت الأبيات ضحكت ، وأرسلت إليه تقول :

— اصطبر حتى تمضى ليلة القدر .

فكتب إليها :

إنى لم أسألك أن تكلميه فى إعفائى عاماً قابلاً . و إذا مضت ليلة القدر، فقد فنىَ الشهر .

ومضى أبو دلامة فشرب الخمر سراً فى بعض الحانات ، فسكر ، وخرج وهو يميل ، فلقيه العسس ، فأخذوه ، وخرقوا ثيابه وساجه[1] ، وأتوا به إلى أبى جعفر ، فأمر بحبسه مع الدجاج . فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة ، وجاريته أخرى ، فلا يجيبه أحد ، وهو فى ذلك يسمع صوت الدجاج ، وزقاء الديوك ، فلما أكثر قال له السجان :

— ما شأنك لماذا تصيح يا هذا ؟ !

— ويلك من أنت ، وأين أنا ؟ ؟

— فى الحبس ، وأنا فلان السجان .

— ومن حبسنى فى هذا القفص ؟

— أمير المؤمنين المنصور .

---

(١) الساج من الثياب الطيلسان وهو كساء كان الخواص يلبسونه

— ومن خرق طيلسانى ؟

— الحرس .

فطلب منه أبو دلامة أن يأتيه بدواة وقرطاس ، ففعل ، فكتب إلى المنصور :

أمير المؤمنين فدتك نفسى	علام حبستنى وخرقت ساجى
أمن صفراء صافية المزاج	كأن شعاعها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى	لقد صارت من النطف[1] النضاج
تهش لها النفوس وتشتهيها	إذا برزت ترقرق فى الزجاج
أقاد إلى السجون بغير جرم	كأنى بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لكان سهلا	ولكنى حبست مع الدجاج
وقد كانت تخبرنى ذنوبى	بأنى من عقابك غير ناجى
على أنى وإن لاقيت شراً	لخيرك بعد ذاك الشر راجى

فدعا به المنصور ، وقال له : « وماذا كنت تصنع مع الدجاج ؟ »

فأجابه :

— أقوق معها حتى الصباح . . .

فضحك المنصور ، وخلى سبيله . فقال له وزيره الربيع بن يونس :

— إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، وقد أقر بذلك . أو ما سمعت قوله : وقد طبخت بنار الله (يعنى الشمس) .

فأمر المنصور برده ، وقال له :

— يا خبيث شربت الخمر ، وقد حلفت لأحدنَّك .

(١) النطف جمع نطفة ، وتطلق على الماء الصافى

— لم أفعل يا أمير المؤمنين . . .

— أفلم تقل ، وقد طبخت بنار الله تعنى الشمس .

— لا يا أمير المؤمنين . ما عنيت إلا نار الله الموقدة التى تطَّلع على فؤاد الربيع . . . !

فضحك المنصور ضحكاً شديداً حتى استلقى ، وقال لوزيره الربيع :

— خذها يا ربيع . ولا تعاود التعرض له . . !



عقد الجوهر

تصور هذه القصة بعض جوانب الصراع بين العباسيين والأمويين ، كما تصور حياة رجل سياسى من مشاهير الرجال فى ذلك العصر ، وهو معن بن زائدة .

وخرج معن بن زائدة من « باب حرب[1] » بالأنبار متنكراً ، مخافة القبض عليه ، وقد خفف عارضيه ولحيته وأخفى شاربه ، وتعرَّض للشمس حتى لوحت وجهه ، وتزيًّا بزى أعراب البادية ، وامتطى جملاً ذلولاً ليضرب به فى الصحراء ، ويقيم فى مجاهلها بعيداً عن نقمة أبى جعفر المنصور ، وفراراً من عيونه الذين يترقبونه ، ويجدّون فى طلبه .

وإنه بين اليأس والأمل ، وبين الخوف والحذر ، وقد هجع الليل وهمد القوم وأخذ يتسلل فى رفق ، إذ طلع عليه رجل أسود متقلد سيفاً ، فأهوى إلى خطام الجمل ، وتعلق به ، ثم أوقفه وأناخه فى تثاقل وجرأة ، فنظر إليه معن فى توجس وإشفاق ، وقال :

— مالك يا هذا . . ؟ !

(١) هو باب من أبواب مدينة الأنبار فى ذلك العهد .

فلم يجب الأسود ، وأسرع معن لينتضى سيفه ، فعاجله الأسود وأمسك بيده ، وقال :

— أتريد قتلى ؟ ! . .

فقال معن :

— ولماذا تنيخ بعيرى ، وتقبض على يدى ؟

فسكت الأسود سكوتاً ثقيلا ، فقال معن :

— دعنى فى سبيلى يرحمك الله ، فما أعرف بينى و بينك شيئاً

فنظر إليه الأسود فى هدوء ، وقال فى تهكم :

— ألست الرجل الذى يطلبه أمير المؤمنين المنصور ؟ !

— ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين المنصور . . . فما أنا بملك أو أمير أو وزير ، ولا أراه يطلب رجلا مثلى لا خطر له ، ولا مطمع فيه ، و إنى لأعرابى غريب عن هذه الدار . . . !

— أتنكر يا هذا ، أولست معن بن زائدة صاحب يزيد بن هبيرة عامل الأمويين ، وعدو أمير المؤمنين بواسط ؟ . . . (١)

— يا هذا اتق الله . . فأين أنا من معن بن زائدة ، وأين هو من بغداد ، بل أين هو من العراق . وقد فرّ أصحاب ابن هبيرة إلى مصر والشام واليمن .

— دع عنك هذا يا معن ، والله إنى لأعرف بك منك . . .

(١) واسط مدينة بين دجلة والفرات

وسكت معن بن زائدة ، وقد أيقن أن الرجل مجدٌّ فى قوله . وأنه وقع فى يده ، ورأى أن لا حيلة له من الخلاص إلا إذا افتدى نفسه بأعز ما عنده ، فعمد إلى رحله ، فانتزع منه عقداً من الجوهر النفيس ، وقال له :

— إليك هذا العقد ، فقد حملته معى وهو أعز شىء عندى ، ويفى بأضعاف ما بذله المنصور لمن جاء بى إليه ، فخذه هدية منى ، ولا تسفك دمى يرحمك الله .

فتناوله الأسود ، ونظر إليه ، وقلّبه ملياً ، ثم قال :

— صدقت فى قيمته ، إنه لعقد نفيس ، لكنى لا أقبله حتى أسألك عن شىء ، فإن صدقتنى أطلقك .

— سل ما تريد .

— إن الناس قد وصفوك يا معن بالجود ، وامتدحوك بالعطاء الجزيل ، وضربوا الأمثال بشهامتك ، وأكبروا معروفك ونجدتك ، فأخبرنى : هل جدت بمالك كله ؟

فقال معن : « لا » . قال : « فبنصفه » فقال : «لا» قال : «فبثلثه» فقال : « لا » قال : « فبربعه » فقال : « لا » حتى بلغ العشر ، فاستحيا معن ، وقال :

— أظن أنى فعلت ذلك . . . .

فقال الأسود :

— ما أراك فعلته ، ولا أعلم أنك فعلته ، وما ذاك إن كنت فعلته

بعظيم . . إننى والله لرجل فقير ولى عيال صغار ، ورزقى من أبى جعفر عشرون درهماً ، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير ، وهو الآن فى يدى ، وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك لتعلم أنه فى الدنيا من هو أكرم منك يداً ، وأسخى منك نفساً ، وأجمل منك معروفاً .

ثم رمى بالعقد إليه ، وخلّى سبيله ، وانصرف .. فناداه معن بن زائدة :

— يا هذا . . يا هذا . . أجبنى يرحمك الله . . من أنت يا أخى . . قد والله فضحتنى . ولسفك دمى أهون عندى مما فعلت ، فخذ ما دفعته إليك ، فإنى غنى عنه ، وأنت أحق به لنفسك وعيالك .

فالتفت إليه الرجل ، وضحك فى استهزاء وقال :

— أردت أن تكذبنى فى مقالى هذا . . والله لا أقبله ، ولا آخذ ثمناً لمعروف أبداً .

ومضى فى سبيله . .

* * *

كان معن بن زائدة من قواد الدولة الأموية ، وكان معروفاً بالشجاعة والكرم ؛ مشهوراً بالمروءة والنجدة وعلو الهمة ، وكان فى عهد مروان بن محمد متنقلاً فى الولايات ، ثم اختص بصحبة يزيد بن هبيرة عامل الأمويين ، وأميرهم بالعراقين(١) ، وأبلى فى محاربة العباسيين بلاء حسناً . وكان أبو العباس قد وجه أخاه أبا جعفر إلى مدينة واسط فى جيش لمحاربة ابن هبيرة ،

(١) العراق يطلق على شاطىء النهر ، وسميت البلاد التى بين دجلة والفرات بالعراقين لأنها بين شاطئيهما

فتحصن بها ، وجمع الجموع ، ونصب الجسور ، فلما كان يوم المعركة اختلف اليمانية والقيسية فى جيشه على القتال ، فقالت اليمانية :

— والله لا نقاتل على دعوة بنى أمية لسوء رأيهم فينا ، و بغضهم لنا . . . .

وقالت القيسية :

— والله لا نقاتل حتى يقاتل اليمانية . . !

وكفت القبيلتان عن القتال مع ابن هبيرة ، ولم يقاتل معه إلا صعاليك القوم وأهل العطاء ، فانهزم وفر كثير من أصحابه . فبعث إلى أبى جعفر بالصلح ، فأجابه ، وأمّنه ، واستدعاه لمقابلته ، فسار إليه فى ألف وثلثمائة رجل ، وكان يطوف بدار أبى جعفر عشرة آلاف رجل من أهل خراسان مستلئمين بالسلاح ، وعيونهم تزهو من تحت المغافر .

فلما دخل على أبى جعفر قال له :

— مرحباً بك أبا خالد ، انزل راشداً .

ثم أجلسه على وسادة وضعت له وأكرمه وجعل يحدثه طويلا ، ثم نهض ابن هبيرة وركب ، واتبعه أبو جعفر ببصره حتى انصرف .

***

لم تكن هزيمة بن هبيرة سنة ١٣٢ هـ بكافية للقضاء على سلطانه ، ولم تكن مصادرة أمواله و إعطاؤه الأمان بدافعة عنه المصير الذى كان يخفيه له أبو جعفر ، و يلح فيه أبو العباس ، و يغرى به أبو مسلم الخراسانى فقد كان أبو مسلم كثيراً ما يكتب إلى أبى العباس يقول :

« والله لا يصلح طريق سهل فيه حجارة إلا ضرّ ذلك بأهله . ولا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة وأصحابه » .

وبعث أبو العباس إلى أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، فماطله وأضجره فكتب إليه يقول :

— والله لتقتلنه ، أو لأبعثن إليك من يخرجه من عندك ، ويتولى ذلك عنك .

فرد عليه أبو جعفر « إنى لفاعل إن شاء الله » وأخذ يأتمر بابن هبيرة فى مدينة واسط ، وكان ابن هبيرة إذا ركب إليه صحبه ثلثمائة فارس ، وخمسمائة راجل ، فدخل يزيد بن حاتم على أبي جعفر وقال له :

— أصلح الله الأمير ما ذهب من سلطان ابن هبيرة شىء ! . . . يأتينا فى ركبه ، فيضعضع به العسكر .

فنادى أبو جعفر أحد رجاله ، وقال له :

— قل لابن هبيرة لا يركب فى مثل هذه الجماعة إذا حضر إلى ، وليأت فى حاشيته .

فذهب الرسول ، وقال له :

— ما هذه الجماعة التى تقبل معك ، كأنك تأتى إلى الأمير مباهياً ، أو كأنك تأتى مهدداً . .

فقال ابن هبيرة :

— إن أحببتم أن نمشى وحدنا فعلنا ، وإن شئتم أن نأتى على أقدامنا

أتينا ، فنحن فى أمركم ، ولكم أن تفعلوا بنا ما تشاءون .

فأجاب الرسول :

— ما نريد بك استخفافاً أبا خالد ، ولكن أهل العسكر إذا رأوا هذه الجماعة غمهم ذلك ، فأراد الأمير ألا يغضب القوم .

فتوجس ابن هبيرة شراً ، وأخذ يحتال للخلاص من أسره والفرار من مصيره ، واجتمع رأى القوم على الغدر به وقتله ، وكان قواد أبى جعفر يدخلون عليه ويستعجلونه ، ويقولون ماذا ننتظر بهذا الأموى عدو أمير المؤمنين . . هلا بعثت إليه من يريحنا منه ؟

فأرسل أبو جعفر إلى الحسين بن قحطبة ، وخاطبه فى شأنه ، وطلب إليه أن يأتى برأسه ، فاعتذر الحسين ، وقال :

— ليس الرأى أن أتولى أنا ذلك ، ولكن ابعث إليه رجلا مضرياً من قومه ليقتله ، فتتفرق كلمتهم . . .

فقال أبو جعفر :

— صدقت ، وأصبت ، فمن الخير لنا أن نفتنهم بأنفسهم ، لا أن نفتنهم بنا . . !

ودعا أبو جعفر مائة رجل من المضرية ، وعلى رأسهم خازم بن خزيمة وبعث بهم إلى ابن هبيرة ، وكان وقتئذ جالساً فى رحبة قصره ، وعليه قميص مصرى ، ومعه أبناؤه ومواليه ، وفى حجره طفل منهم صغير . ففاجأهم القوم فى المساء ، وهم يسمرون ويتضاحكون .

فقالوا لابن هبيرة :

— إننا نريد حمل ما بقى عندك من الخزائن .

— وهل أبقى أبو جعفر عندى فائضاً من المال تحملونه إليه ؟

— لقد علم الأمير أنك تدخر كثيراً ، فبعث بنا لنأتى بكل ما تدخر . .

— إننى لم أدخر شيئاً فوق ما أحتاج لنفسى وأبنائى ، فادخلوا وخذوا لأميركم ما تريدون . .

ودخل خازم وصحبه ، فطافوا فى حجر القصر وغرفه ساعة حملوا فيها ما حملوا ، وبعد ما توثقوا من كل شىء توجهوا نحو ابن هبيرة ، فنظر إليهم ، وقال :

— والله إن فى وجوه القوم لشراً . .

وانبرى إليهم حاجبه أبو عثمان فقال لهم :

— ما وراءكم أيها القوم بعد ما أخذتم ما أخذتم ، وحملتم ما حملتم ، أتريدون الغدر بمن أمّنه أميركم ، وأقسم له الإيمان ؟ ! ...

فقالوا :

— تنح يا هذا فما كان لنا أن نغدر إلا بمن غدر بنا . ولقد بلغ أبو جعفر أن صاحبك يتربص به ، ويعمل للفرار من وجهه بعد ما أمّنه ، وأكرمه . .

وتقدم بعض القوم ، فاعترضهم أبو عثمان ، فنصحه أحدهم بسيفه ،

فصرعه ، فقام داود ابنه فقاتلهم ، فتفرقوا عليه ، وقتلوه هو ومواليه ، ثم مضوا إلى ابن هبيرة وقد شهروا سيوفهم ، فقال :

— ويحكم نحُّوا عنى هذا الصبى حتى لا يرى مصرعى . .

فنحوه عنه . وخر ساجداً ، فقتلوه . . . وأخذوا رأسه إلى أبى جعفر ، فأمر برفعها على خشبة فى المدينة ، ومعه رؤوس غيره من عمال الأمويين .

* * *

قُتل ابن هبيرة ، وتفرق أصحابه فى البلاد ، وفرّ معن بن زائدة فيمن فر منهم ، وأخذ يتنقل بين البدو والحضر ، ضارباً فى الفلاة تارة ، متنكراً فى المدن تارة أخرى ، وظل كذلك حتى توفى أبو العباس وتولى الخلافة بعده أبو جعفر المنصور ، فجد فى طلبه لمكانته وخطره ، ووعد بعطاء جزيل لمن يأتى به أو برأسه ، إذ كان من سياسة العباسيين أن يقضوا على صناديد بنى أمية ، ورجال دولتهم أينما كانوا . وأيقن معن بمصيره المشئوم ، فتخفى وجدّ فى التخفى ، واحتال لذلك ما وسعته الحيلة .

وكان قد نزل الأنبار ، وأقام بها متنكراً ، فلما ضيّقت عليه عيون أبى جعفر خرج فى جنح الليل من باب حرب ، وقد خفف عارضيه ولحيته وأحفى شاربه ، وتعرض للشمس حتى لوحت وجهه ، وتزيا بزى أعراب البادية ، وامتطى جملا ذلولا ، فلقيه رجل أسود من رجال أبى جعفر فأمسك به : وأناخ بعيره ، فقدم له عقداً من الجوهر النفيس ليطلقه ، فرده إليه ، وأطلقه وقد وهبه لنفسه ولجوده . .

بقى معن بن زائدة مختبئاً ، فاراً متخفياً ، يتنقل من مضرب إلى مضرب ومن مذهب إلى مذهب ، ويقيم فى بلد حذراً متردداً ثم لا يلبث أن يرحل عنها خائفاً مترقباً ، حتى كان يوم الهاشمية[1] من سنة ١٣٧ ﻫ فانتهزه فرصة للخلاص من نقمة أبى جعفر ، والفوز برضاه وأمانه . وكان الراوندية[2] فى ذلك اليوم قد ثاروا فى المدينة وصاروا يطوفون بقصر أبى جعفر ، ويقولون « هذا قصر ربنا » فحبس منهم المنصور مائتين ، فغضبوا ، وأتوا بنعش وحملوه وليس به أحد ، وطافوا بالمدينة حتى جاءوا إلى باب السجن ، فرموا بالنعش ، وشدوا على الحراس ، فقتلوهم ، وأخرجوا منه أصحابهم ، فتنادى الناس بالمدينة ، وضجّوا بها ، وتداعت الأصوات ، واستورى زناد الفتنة ، وحمى وطيس القتال .

ونزل المنصور من قصره ، وركب دابة ، وقد اختلط القوم ، واشتبكت الجنود بالثائرين ؛ وهمّ بعض الراوندية بقتل المنصور ، فانبرى لهم رجل ملثم . وقاتلهم دونه قتالا شديداً ؛ وصرع منهم كثيرين ، وانكشف القوم ، وهدأت المدينة ، فاستدعاه المنصور ، وقال له :

— من أنت لله أبوك ؟ . .

---

(١) الهاشمية مدينة بالعراق بناها أبو العباس لتكون عاصمة للخلافة بدل الأنبار والكوفة وقد أقام فيها المنصور قبل أن يبنى بغداد .

(٢) الراوندية قوم من غلاة الدعوة العباسية قالوا بتناسخ الأرواح ، وزعموا أن أبا جعفر المنصور ربهم ، وأن الهيثم بن معاوية جبرائيل .

— أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة . . .

— أنت معن ؟ . .

— نعم يا أمير المؤمنين . ولقد ادخرتُ نفسى لمثل هذا اليوم ، ولو شاء أمير المؤمنين كنتُ فى خدمته .

— مثلك يدخر ويصطنع ، وقد أمنتك على نفسك ومالك .

ثم اصطحبه معه أبو جعفر ، وخلع عليه وأكرمه . . .

وبعد أيام دعاه لمقابلته ، فحضر معن ، فقال له :

— يا معن ، إنى سأعهد إليك فى أمر ، فكيف تكون فيه ؟ .

— أكون كما يحب أمير المؤمنين ، وكما يكره أعداؤه . . .

— إنى قد وليتك اليمن ، فابسط السيف فيهم ما شئت حتى تنقض حلف ربيعة واليمن وتشتت شمل أعدائى ، وأعداء بنى العباس .

— أبلغُ من ذلك ما يريد أمير المؤمنين .

وذهب إلى اليمن ، وتولى أمره ، وقتل وأسرف . . !

* * *

وكان لمعن بن زائدة شاعر قد اختص بمدحه ، وأغدق عليه العطايا ، هو مروان بن أبى حفصة ، فلما تولى اليمن نظم قصيدة نونية تحدث فيها عن نجدته وشهامته وشجاعته وكرمه ، فبلغ المنصور أمر هذه القصيدة ، فلما وفد معن على أبى جعفر بعدها ، قال له :

— قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ، ورأيه فيك لغضب عليك .

— وماذا يا أمير المؤمنين ، فوالله ما تعرضت لنقمتك ، ولا اقترفت مخالفتك ، وما أظن أنني أتيت أمراً يغضبك .

— بل سمعت أنك أعطيت مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله :

معن بن زائدة الذي زيدت به شرفاً على شرف بنو شيبان
إن عدَّ أيام الفعال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال معن :

— والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته ما بلغك لهـذا الشعر ، بل أعطيته لقوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلماً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان

فابتسم المنصور ، وقال :

— لله درك يا بن زائدة ، إنما أعطيته لهذا القول ؟ ! . . .

— نعم يا أمير المؤمنين . ولولا مخافة النقمة عندك ، لأمكنته من مفاتيح بيوت المال ، وأبحته إياها .

— ما أهون عليك يا معن ما يعز على نفوس الرجال .

— ذلك من فضل أمير المؤمنين . . !

* * *

ظل معن بن زائدة فى طاعة العباسيين وخدمتهم ، وقد وثقوا به ، وتنقل فى الولايات ، وكان فى أواخر أمره والياً لسجستان ، وكان الخوارج يبغضونه لخذلانه إياهم وانضمامه للعباسيين ، فبينما كان فى أحد أيام سنة ١٥٢ هـ دعا بعض الصناع ليعملوا عملا فى داره فاندس بينهم بعض الخوارج ، ففاجأوه وهو يحتجم وقتلوه ، فراح ضحية السياسة وكم للسياسة من ضحايا . . !



أديب

كان ابن المقفع أنبغ معاصريه فى فنه ، وكان مع أدبه يشتغل بالسياسة ، لأن السياسة فى ذلك العصر كانت صناعة كبار الأدباء ، فأصابه منها شر ما يصيب رجال السياسة من شر وبلاء ، فلقى مصرعه على يد رجل جاهل .

— كأنّك تحسب أنى لا أعرف موضع ابن المقفع ومكانته بين الناس ! . .

قال هذا أبو جعفر المنصور لوزيره وكاتبه أبى[1] أيوب سليمان ، وهو يؤنبه لكيده لخالد بن برمك ، وسعايته به عنده ، فقال أبو أيوب :

— الأمانَ يا أمير المؤمنين . إنى لأعلم ذلك ، وأعلم أنه بك أولى من عمك عيسى بن على .

فقال أبو جعفر :

— ففيمَ السعاية إذن بخالد بن برمك ، وقد صرفتُه عن الديوان ، وقلدتُك إياه ، وأبعدته إلى فارس حتى لا تتخوّفه على محلك ، وجزيتك

(١) هو سليمان بن مخلد الموريانى من قرية من قرى الأهواز تدعى « الموريان » وكان أديباً عالماً ، وقد تقلد الوزارة فى عهد المنصور .

على سابق صنيعك أحسن الجزاء ، فقربتك منى ، ورفعتك فوق سائر الكتاب ، وأغضيتُ عن ابن المقفع « أكْتبَ الخلق » وتركته لأعمامى يستعينون بأدبه ، ويعتزون بفضله ، ويفاخرون بخدمته .

وكان أبو أيوب فى أيام « بنى أميّة » كاتباً لسليمان بن حبيب والى « الأهواز » وقد وضع سليمان الأرصاد على كل من يمر من عمّال عبد الله بن معاوية الطالبي والى أصبهان . وكان أبو جعفر المنصور قد وفد على عبد الله فى ذلك الحين ، فأقامه على « كورة أيذج » فجبى أبو جعفر المال وحمله إلى البصرة ، ولم يحمل إلى ابن معاوية شيئاً ، فلما وصل فى طريقه إلى الأهواز لقيه رجال سليمان فقبضوا عليه ، وأخذوه إليه ، وكان أبو أيوب حاضراً ، فقال له سليمان بن حبيب :

— هات المال الذى اختنته لنفسك . . .

فأجاب أبو جعفر :

— لا مال عندى ! . .

فدعا له سليمان بالسياط ، فقال أبو أيوب :

— أيها الأمير توقف عن ضربه ، فإن الخلافة إن بقيت فى بنى أمية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى بنى هاشم لم تكن لك بلاد الإسلام بلاداً .

فلم يسمع له سليمان ، وضرب أبا جعفر اثنين وأربعين سوطاً حتى كاد يفيض ، فقام أبو أيوب وألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأل سليمان ويستعطفه

حتى أمسك عن ضربه ، وأمر بسجنه ، فتحركت المضرية لضرب أبى جعفر وسجنه ، وتجمعوا وصاروا إلى السجن فكسروه ، وأطلقوه ، فخرج إلى البصرة .

ورعى أبو جعفر هذا الصنيع لأبى أيوب ، فلما تولى الخلافة اتخذه فى ديوانه وقربه إليه ، وخصّه بتكريمه ، وصرف من أجله خالد بن برمك وزيره ، وقلده أعمال فارس ، ولم يزل أمر أبى أيوب يعلو ، ونجمه يسطع حتى تقلد الوزارة ، ودانت له السيطرة على جميع الدواوين والأعمال ، وأصبح من نفس أبى جعفر بمكان لا يدانيه فيه أحد من رجال الدولة ، حتى قالت العامة إنه كان يسحر له ، ويتخذ دهناً يمسحه على وجهه إذا أراد الدخول عليه ، وضُرب المثل بدهن أبى أيوب .

وبلغ من مكانة أبى أيوب عند أبى جعفر المنصور أن أم سليمان الطلحية إحدى زوجاته اتخذت له مجلساً فى الصيف ، وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب ، فلما صار إليه أعجبه ببرده وحسنه ، ثم قال لها :

— ما أنتفع بما أنا فيه . . .

فقالت أم سليمان :

— ولم يا أمير المؤمنين ؟

فقال : « لأنه ليس معى أبو أيوب ، فيحدثنى ويؤنسنى ، فقالت : « يا أمير المؤمنين إنما هيأته لسرورك ، فإنْ شئتَ بعثتَ إليه » .

فبعث أبو جعفر إلى أبى أيوب ، فحضر ، فقال له :

— يا أبا أيوب كما رأيت طيب هذا الموضع ولذته ، لم أنتفع به حتى تكون معى فيه .

***

كانت هذه مكانة أبى أيوب سليمان عند المنصور ، لذلك حرص على حفظها ، وتخوّف غيره عليها ، وكان يعلم شأن خالد بن برمك عنده ، وثقته به ، ومكانة أدب ابن المقفع من رأيه وتقديره .

فكان دائم الخوف من أن يعيد المنصور خالد بن برمك إلى الديوان ، فدأب على السعاية به وهو بفارس حتى نكبه أبو جعفر وألزمه بدفع ثلثمائة ألف درهم ، ولم يكن لديه إلا مائة ألف درهم ، ثم ظهرت فيما بعد براءته وكذب أبى أيوب ، فصفح عنه ، وهدد أبا أيوب بعزله قائلاً :

— كأنك تحسب أنى لا أعرف موضع ابن المقفع ومكانته بين الناس

ساء أبا أيوب أن يظفر ابن المقفع بهذا التقدير ، وأخذ يدس له كما دس لخالد ، وكان ابن المقفع يكتب وقتئذ لعيسى بن على والى « كِرْمان » وعم المنصور وقد جاء يوماً إلى عيسى ، وقال له :

— دخل الإسلام قلبى ، وأريد أن أسلم على يديك .

فقال عيسى :

— ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس .

ثم حضر طعامه عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى :

— أتزمزم وأنت على عزم الأسلام ؟

فقال ابن المقفع :

— إنى لأكره أن أبيت على غير دين .

وأسلم ابن المقفع ، وسمى نفسه « عبد الله » ، ثم انتقل مع عيسى بن على بعد عزله إلى البصرة ، وكان واليها يومئذ أخاه سليمان بن على ، فجعل يكتب لهما ، ويؤدب ابنى أخيهما اسماعيل بن على ، ويبعث بكتبهما إلى أخيهما الرابع عبد الله بن على ، وكان خارجاً على أبى جعفر المنصور فى الجزيرة والشام مطالباً بالخلافة لنفسه ، وقد بعث مرة إلى ابن المقفع يستشيره ، فأجابه :

— لست أقود جيشاً ، ولا أتقلد حرباً ، ولا أشير بسفك دم ، وعثرة الحرب لا تقال ؛ وغيرى أولى بالمشورة فى هذا المكان .

وكان أبو جعفر بمكة حين مات أخوه أبو العباس ، فأخذ البيعة له بالعراق عيسى بن موسى والى الكوفة ، وكتب إليه وإلى عمال الدولة بذلك ، وفيهم عمه عبد الله بن على السفاح ، فرفض عبد الله مبايعته ، وبايع لنفسه بالخلافة ، واعتصم بالجزيرة والشام ، فخاف أبو جعفر ؛ وجزع جزعاً شديداً ، فقال له أبو مسلم الخراسانى :

— ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ ! .

فقال أبو جعفر :

— إنى لأتخوف شر عبد الله بن على ، وشيعة على بن أبى طالب .

فقال أبو مسلم :

ــ لا تخفه ، فأنا أكفيك أمره إن شاء الله ، إن عامة جنده ومن معه من أهل خراسان وهم لا يعصوننى . .

وخرج فى جيش لقتال عبد الله بن على وقد جمع إليه الجند والسلاح ، فلما علم عبد الله بخروج بطل الدولة العباسية إليه ، قبض على من معه من أهل خراسان وأمر بقتلهم ، فذبحوا حتى لا ينضموا إلى أبى مسلم وبقى القتال بينهما بضعة أشهر ، حتى ظفر أبو مسلم ، وفر عبد الله إلى أخوته بالبصرة .

علم المنصور بفرار عبد الله إلى البصرة ، واستنجاده باخوته ، فأرسل إلى واليها سليمان بن على ليبعث إليه بأخيه ، فامتنع ، فأمر أبو جعفر بعزله ، وأرسل سفيان بن معاوية المهلبى والياً مكانه ، وهو من صنائع « أبى أيوب » ، وألح عليه فى إرسال عبد الله ، فخاطب أخوته فى ذلك ، فأبوا إلا أن يوافق أمير المؤمنين على كتاب أمان له يكتبونه ، فرضى المنصور ، وكلف عيسى بن على كاتبه ابن المقفع أن يكتب كتاباً شديد الحيطة ، بعيداً عن التأويل ، فكتب هذا الكتاب ، وفيه يقول :

« وإنْ أنا نلتُ عبد الله بن على ، أو أحداً ممن أقدمهم معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً ، سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها تصريحاً أو كناية ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفىٌّ من محمد بن على بن عبد الله ومولود لغير رِشْدة ، وقد حلّ لجميع أمة محمد

خلعى وحربى والبراءة منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى ، و إعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى و بين أحد من المسلمين » .

فلما قرأ أبو جعفر ذلك ، قال للرسول :

— إذا وقعت عينى على عبد الله ، فهذا الأمان له صحيح ، لأنى لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتى له ، فيسير فى البلاد ، ويسعى علىّ بالفساد .

ثم التفت فى غضب وغيظ وقال :

— ومن كتب له هذا الأمان ؟ .

فأجاب أبو أيوب :

— كتبه يا مولاى « أكْتب الخلق ابن المقفع » ! .

فهز المنصور رأسه ، وقد أخذ الغضب من نفسه وقال :

— فما أحد يكفينى إياه ؟ ! .

وكان أبوأيوب يتهم ابن المقفع عند المنصور بأنه هوالذى يساعد عبدالله برأيه ويعاونه بكتبه ، ويحضه على مخالفته وحربه ، فلما سمع هذا القول منه وجد الفرصة للايقاع به وأعلم صنيعته « سفيان بن معاوية » والى البصرة ؛ وكان سفيان يحقد أيضاً على ابن المقفع منذ سفر بينه و بين « المسيح بن الحوارى » والى نيسابور أيام بنى أمية ، فقد احتال ابن المقفع

على سفيان وماطله حتى استعد المسيح وقاتله وهزمه ، فعاد سفيان دون أن يخاف المسيح فى الولاية كما أراد .

فلما وصله ما قاله أبو جعفر ، وكان يعلم ما يضمره أبو أيوب لابن المقفع من الحسد والخوف ، أخذ يتعقبه ويتحرش به ، ويفترى عليه ؛ حتى ضاق به ابن المقفع واستصغره فكبر ذلك على سفيان ، وأضمر له شراً كثيراً .

* * *

وكان عيسى بن على ينيب ابن المقفع فى شؤونه ، ويكلُ إليه عظائم أموره ، ويرسله إلى سفيان بن معاوية فى حاجاته ، فلما ساء ما بينهما امتنع عن السفارة إليه ، وأعرض عن الاتصال به . ثم كان لعيسى بن على ما اضطره إلى رجاء ابن المقفع أن يذهب إلى سفيان فى بعض شأنه ، فاعتذر ابن المقفع وألح عليه عيسى لأنه لا يرى غيره أولى منه فى قضاء مهمته ، فقال له .

— وجِّه معى ابراهيم ابن جبلة الكندى ، فإنى لا آمن سفيان . . .

فقال عيسى :

— كلا ، انطلق إليه ولا تخف ، فو الله لا يعرض لك وهو يعلم مكانك منى . .

فقال ابن المقفع :

— لا . لابد من ابراهيم ، فإن صاحب الشر لا يسلم من شره أحد ،

وإنْ هو ضعف عن ذلك جاء الشر بسببه ، وإنَّ أهل الترات لابد لبعضهم من اتقاء بعض .

وذهب ابراهيم بن جبلة مع عبد الله بن المقفع ، فجلسا على باب الديوان وجاء عمر بن جميل ، ابن عم إبراهيم فجلس إليهما . وانهم لكذلك إذا بغلام لسفيان يخرج ، وينظر إليهم ، ثم يرجع . وبعد هنيهة عاد الغلام ، فقال لعمر :

— يقول لك الأمير ادخل الديوان ، فاجلس فيه ، فإذا انتصف النهار قابلك . .

فقام عمر بن جميل ، فدخل الديوان ، ودخل الغلام ، ثم عاد ؛ فقال لابراهيم .

— يقول لك الأمير ادخل إليه . . .

فنهض إبراهيم بن جبلة ودخل إلى سفيان . . وبعد هنيهة عاد الغلام ، فقال لابن المقفع :

— يقول لك الأمير ادخل . . .

فقام ابن المقفع ، وبينما هو سائر داخل الديوان عُدل به إلى مقصورة أخرى بها عتّاب المحمدى ، وشيرويه اللاديسى ، فأخذاه ؛ وأوثقاه بالقيود والأغلال .

ولما دخل إبراهيم بن جبلة على سفيان ، قال له : « إيذن لابن المقفع » فقال سفيان لغلامه : « إيذن له » .

فخرج الغلام متظاهراً بالذهاب إليه ، ثم رجع يقول :

— لقد انصرف ابن المقفع . . .

فقال سفيان لابراهيم :

— انظر . . هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله ، وما أشك أنه قد غضب .

ثم نهض سفيان ، وقال لإبراهيم لا تبرح ، ودخل إلى حيث اقتيد ابن المقفع ، فلما رآه قال له :

— وقعت والله ! . .

فأجاب ابن المقفع :

— أنشدك الله . . !

فقال سفيان :

— أمي مُغتلمة ، كما ذكرتَ ، ان لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد قبلك .

فأجاب ابن المقفع :

— انك لتقتلني ، فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قُتل ألف مثلك ما وفوا بواحد . . !

ثم قال :

إذا ما مات مثلي مات شخص   يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري   بموتك لا الصغير ولا الكبير

فقال سفيان :

— والله يابن الزنديقة لأحرقنّك بنار الدنيا قبل نار الآخرة . . !

وأمر بتنور فسُجر ، ثم أمر بقطع يمينه ، فقطعت وألقيت فى النار ، فقال ابن المقفع :

— ان أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبرهما و يقضى منهما ما يشاء .

فقال سفيان :

— اسكت يا زنديق . . .

وأمر بقطع يده اليسرى ، وألقيت فى النار ، فقال ابن المقفع :

— لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه .

فقال سفيان :

— أسكت بازنديق ، والله لتموتن شر ميتة .

فقال ابن المقفع :

— إن الله خلق الخلق بقدرته ، وكتب عليهم الموت بعد الحياة .

فقال سفيان :

— إخسأ يا زنديق ، والله لتقطعن إرباً إرباً ، ولتجعلنّ رماداً تذروه الرياح .

وجعل سفيان يأمر بقطع أجزائه و يلقيها فى النار إلي أن أحرقه ، ولم يترك له أثراً .

* * *

لقى ابن المقفع مصرعه على يد هذا المتوحش الجاهل ، ثم دخل سفيان

إلى ابراهيم بن جبلة فحدثه ساعة ، ثم أذن له فى الخروج ، فلقى بالباب غلام ابن المقفع ؛ فقال له :

« ما فعل مولاى » فقال ابراهيم : « لا رأيته » .

فقال الغلام : « بلى ، فقد دخل بعدك » فقال ابراهيم : « ما رأيته » !

وأراد الرجوع إلى سفيان ، فحجب ، فانصرف إلى عيسى بن على ومعه غلام ابن المقفع يبكى و يصيح :

— قتل سفيان مولاى . . . .

فقال عيسى : « ما هذا ؟ » فأخبره إبراهيم ما جرى ، فقال له :

— ارجع إلى سفيان ، فقل له خلِّ عن ابن المقفع إن لم تكن قتلته ، فان كنتَ قتلته ، فوالله لأطلبنك بدمه ، ولا أدع فى ذلك جهداً .

فسار إبراهيم إلى سفيان ، وأبلغه ما قاله عيسى ، فأجاب :

— ما رأيت ابن المقفع . . !

وصرفه ، ودعا بعمر بن جميل من الديوان ، وقال له :

— ألا تعجب من ابن عمك يأتينى برسالة عسى ، يدّعى أنى قتلت ابن المقفع ! . .

فقال عمر :

— لا ذنب له فيما قال، فانما أُرسل برسالة فأداها .

فقال :

— صدقت ، وما الرأى عندك ؟ ؟ . .

فأجاب عمر :

— إن عيسى بن على لا يقدر لك ها هنا على مضرة لأنك الوالى ، لكنه سيكلم أميرالمؤمنين المنصور ، وليس أحد أخوف عليك من أبى أيوب سليمان فإنه إن عاونه ضرّك ، و إن كف عنك نال عيسى منك ما يريد .

وأمر عيسى بن على قوماً ، فنادوا فى الطرق : «سفيان بن معاوية قتل عبد الله بن المقفع » وصار بنو على إلى المنصور يطالبون سفيان بدم ابن المقفع وأخبره عيسى ما وقع ، فبعث مولاه أبا الخصيب إلى سفيان بكتاب يقول له فيه :

— يابن معاوية قد وجهت إليك بأبى الخصيب ، فإن كان ابن المقفع حيًّا ، فادفعه إليه وأنت على عملك ، و إن لم تدفعه إليه ، فقد أمرته بعزلك و بحملك .

فقال سفيان لأبى الخصيب :

— ما أقدر عليه . . . ولا أعرف له مكاناً . . !

فقيده أبو الخصيب كما أمر الخليفة ، وخرج مع سفيان رجال من أهله فأشار عليهم رجل أن يقابلوا أبا أيوب ، فيكلموه كلاماً حسناً يرهبه ولا يسرفوا عليه فيُحفظوه ، ولا يضعفوا فى مخاطبته ، فيطمعوه ، ففعلوا .

وجاء أبو أيوب إلى سفيان فى سجنه فلما رآه قال له :

— يا أبا أيوب أنا أعلم أنى إن سلمت فبك أسلم ، و إن عطبت فوالله إنى وأهل بيتى نعلم أنى بك عطبت ، و برأيك قتلت . .

فارتاع أبو أيوب ، وقال :

— أنا . .

فأجاب سفيان :

— نعم ، لأنك تقدر على أن تدفع عنى . .

فقال له أبو أيوب :

— لست أدعى القيام بأمرك . . !

وذهب إلى أبى جعفر المنصور ، فدخل عليه ، وقال :

— وماذا فعل سفيان بن معاوية يا أمير المؤمنين ، وقد كفاك شرّ من أبغضته ، ودفع عنك صنيعة بنى عمك ؟

فقال أبو جعفر :

— لقد قتل « أكتب خلق الله » وأحب الأدباء إلىّ . . .

فأجاب أبو أيوب :

— أو نسيت يا أمير المؤمنين ما كتبه ابن المقفع لعبد الله بن على فى طلب أمانك ، وما اجترأ به على مقامك ، وما دسّه لخلعك والبراءة منك ، وخروج الأمة عليك ؟

فقال أبو جعفر :

— لكن أدبه يشفع له ، وسيرته فى الناس تستوجب له المغفرة ، وإنى لأحله من تقديرى أعظم محل .

فقال أبو أيوب :

— إن الخيرة لك يا مولاى فيما وقع ، والسياسة لا تعرف شفيعاً من الأدب والعلم ، بل استغلالاً للأدباء والعلماء فيما يريده السياسيون ، وتنكيلاً بهم عند ما يخافون منهم خطراً على ما أوتوا من عزة وجاه وسلطان ، وقد آتاك الله ما ليس لأبناء عمك ، وما يحفز فيهم الطمع ، فعلامَ تأسى على كاتبهم وتغضب لذهاب صنيعتهم وقد كفاك الله شره . !

فأمسك المنصور عن عقاب سفيان ، ثم أطلقه ، وأعاده إلى عمله ، وذهبت نفس ابن المقفع[1] ضحية الحسد والحقد والسياسة وضغائن الأمراء .



(١) اختلف الرواة في سنة قتل ابن المقفع والا رجع أنه قتل حول سنة ١٤٥هـ لأن سليمان بن على طالب بدم ابن المقفع ، وقد مات سليمان سنة ١٤٣ على ما ذكره الطبرى . أما ولادة ابن المقفع فالأرجح أنها حول سنة ٨١ أو ٨٢

قائد العصر الذهبي

هو أبو مسلم الخراسانى — وأى قائد هذا الذى قوض دولة ، وشيّـد دولة ، وكانت له منزلة عظيمة عند الخليفتين أبى العباس ، والمنصور ، ولـكن ذلك لم يشفع له حين خشى المنصور بأسه ، وخاف غدره وطمعه فى الملك والسلطان ، وهذه القصة تكشف لنا عن الحياة السياسية لهذا القائد بعد أن استتب الأمر للعباسيين . وهى مأساة تاريخية فذة

وجلس أبو جعفر المنصور على وسادة فى مضربه بالرومية — من المدائن — ومعه وزيره أبو أيوب سليمان ، وحوله بعض خاصّته ، وقد سقط بين الاستبداد برأيه فى قتل أبى مسلم الخراسانى ، والمشورة فيه . ثم قال لسالم ابن قتيبة :

— ما ترى فى أمر أبى مسلم ؟

— أرى أن يُتجاوز له ويصفح عن ذنبه ، فهو قائد دولتك ، وزعيم دعوتك ! . . .

— ولـكنه سيفٌ يخشى غدره ، ولا يؤمن جانبه . !

وأدرك سالم ما يريده المنصور فقال :

— نعم يا أمير المؤمنين ، ولا يصلح سيفان فى غمد ، ولا إلهان فى أرض !..

— صدقت . . . ثم ماذا ؟ . . .

— ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . . .

— حسبك يا ابن قتيبة . لقد أودعتها أذناً واعية ، والله لا يكون فيها إلا إمام واحد . .

ثم نظر المنصور فى كتاب ورد إليه من أبى مسلم يعاتبه فيه ، ويهدده بالخروج عليه ، ودفعه إلى وزيره أبى أيوب ، وهو يقول :

— يمنُّ علينا ابن الخبيثة بأن أقام سلطاننا ، وعرّفنا إلى من جهلنا ، وجرّد السيف فى خدمتنا ، حتى استذلّ التوبة واستنكر الرحمة ، وأبغض المعذرة ، وقتل ستمائة ألف صبراً . والله لو كانت مكانه أمة سوداء لفعلت مثلما فعل . .. قتلنى الله إن لم أقتله .

وتناول أبو أيوب الكتاب وقرأه ، وتمتم بعبارة غير مفهومة ثم قال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون. طلبتُ الكتابة حتى إذا بلغت غايتها ، فصرت كاتباً للخليفة ، وقع هذا بين الناس . . !

فقال المنصور :

— أو تنسى تأييده سراً لرأى أبى سلمة الخلال فى مساعدة العلويين علينا ، وأخذهم الخلافة دوننا ، حتى كاد يستفحل أمرهم ، ويشتد خطبهم، ثم ألا ترى كيف فتن الناس بنفسه ، وبهرهم بجرأته ، واستكثر من شيعته ،

وظهرت فى خراسان طائفة المسلمية تقول بخلافته ، وتؤمن بإمامته .

— ولـكننى أخشى يا أمير المؤمنين أن يثور عليك أصحابه إن قتلته .

— لا تخف إذا آلت لنا الغلبة عليه ، وقديماً عبد الناس الغالب وخدموا صاحب الجاه والمال .

— إن أصحابه يؤثرونه على كل شىء سواه . والله ما أرانا نسلم . . !

— لا شىء يؤثره الناس غير المـال . . . سنوزعه عليهم ، ونكفى منه طمعهم ، ونشترى به أنفسهم ، فاحتل عليه حتى يأتى إلينا .

* * *

واحتال أبو أيوب على أبى مسلم حتى استقدمه ، وكان قد همّ بالعودة إلى خراسان بعد انتصاره على « عبد الله بن على » ، وأقبل على (الرومية) ومعه صحبه ورجاله ، فأسرع أبو أيوب إلى أبى جعفر المنصور وقال له :

— هذا الرجل يدخل عليك العشية فماذا أنت صانع ؟

— أريد أن أقتله حين أراه . والله إن ملأتُ عينى منه لأقتلنه . !

— أنشدك الله ألا تفعل ، فإنه يدخل ومعه الناس ، فإن قتلته لم آمن البلاء ، لكن إذا دخل عليك ، فأذن له أن ينصرف ليستريح ، فإذا غدا عليك رأيت رأيك فيه ، وأنزلت به ما تريد . .

فلما كانت العشية أذن لأبى مسلم بالدخول ، فرآه المنصور فنهض له من مجلسه وعانقه طويلاً وأكرمه ، ورحّب به وأجلسه ، وبعد حديث ودى قصير قال له :

— يا عبد الرحمن .. إن للحرب بلاء ، وللسفر عناء ، وللطريق مشقة ، فاذهب وأرح نفسك الليلة ، ثم اغد عليّ في الصباح .

— فانصرف أبو مسلم وانصرف الناس ، ولكن لم ينصرف عن المنصور حقده عليـــه وما أضمره من الغدر به ، والفتك بنفسه ، وشغلته هذه الحال طول الليل فلم يهدأ له فكر ، ولم يغمض له جفن ، ولم يطمئن به مضجع ، حتى إذا فنى الليل ، واصفرّ وجه الأفق وأطلت الشمس من المشرق ، جلس المنصور فى مضربه و بعث إلى وزيره أبى أيوب فأقبل مسرعاً ، وحياه فلم يرد التحية ، فأعادها عليه ، فلم يجبه ، فأوجس منه خيفة ، وسكت قليلاً ثم قال :

— يحفظ الله الأمير . . ما باله لا يجيب . . هل من أمر أهمه ، أو من حادث أغضبه ؟

فقال المنصور :

— وأىّ أمر أهمنى غير أمر أبى مسلم ، وأىّ حادث أغضبنى غير مافعلته أمس ، فإنك منعتنى من قتله ، وأسلمته للحياة ، وما كنت آمن ما يحدث منه إذا بقى ساعة حيًّا ، فما بالك ، وقد تركته ليلة كاملة قائماً على رجليه . !

فسكت أبو أيوب ، وأعجزه الخوف عن الجواب . . و بعد هنية قال المنصور :

— يا أبا أيوب ادع لى عثمان بن نهيك رئيس الحرس

فدعاه ، فلما حضر قال له :

— كيف بلاء أمير المؤمنين عندك يا عثمان ؟

— إنما أنا عبدك يا أمير المؤمنين . والله إن أمرتنى أن أتكىء على سيفى هذا حتى يخرج من ظهرى لفعلت . . .

— وكيف أنت إن أمرتك بقتل أبى مسلم ؟

فوجم عثمان ساعة لم يحر فيها جواباً ، ولم تتحرك منه شفة ، فقال المنصور فى صوت رهيب :

— ما بالك ياعثمان لاتتكلم ، أجبنى ، كيف أنت إن أمرتك بقتل أبى مسلم ؟

— أقتله . . أقتله . . نعم أقتله لأجلك يا أمير المؤمنين ، ولو أمرتنى بقتله ثلاث مرات لفعلت . .

— انطلق إذن ، فجئنى بأربعة أشداء من وجوه الحرس .

فانصرف عثمان ، و بعد قليل عاد بأربعة من رجاله ، فقال لهم المنصور :

— كيف أنتم إذا أمرتكم بقتل أبى مسلم ؟

فقال الجميع فى صوت واحد :

— نقتله . . نقتل عدو الله ، وعدو أمير المؤمنين . . !

فقال المنصور :

— قفوا خلف ستار المجلس ، فإذا دخل أبو مسلم عندى ، فارتفع صوتنا بالحديث ، فلا تخرجوا ، فإذا صفقت بيدى فاهرعوا إليه واقتلوه

فأجابوا :

— سمعاً لأمير المؤمنين وطاعة.

***

كان أبو مسلم الخراسانى قائد الدولة ، وزعيم الدعوة العباسية ، اختاره ابراهيم الإمام رئيساً للشيعة فى خراسان ، وكان وقتئذ شاباً يافعاً ، قوى الشكيمة ، واسع الحيلة ، عظيم الدهاء ، فعقد له الإمام الزعامة على لواء يدعى « الظل » وراية تدعى « السحاب » ، وخرج بمن معه إلى خراسان فنزل فى دار سليمان بن كثير أحد كبار الشيعة العباسية بقرية سفيذنج سنة ١٢٩ هـ . فاجتمع حوله الناس ، وهزم « نصر بن سيار » عامل الأمويين ، وفتحت جيوشه بلاد الفرس والعراق ، وأقام أبا سلمة الخلال — حفص بن سليمان — والياً على الكوفة بعد فتحها ، فلما وصل إليها أبو العباس وأبو جعفر وآلهما فارّين من وجه « مروان بن محمد » بعد قتله لأخيهم « ابراهيم الإمام » ، أنزلهم أبو سلمة داراً بالكوفة ، وكتم أمرهم شهرين ، حتى اتهم بأنه يريد بذلك أن يبايع للعلويين دون العباسيين ، لأنه يؤثرهم بالخلافة ، وقد عرفها له أبو العباس بعد فوزه بالخلافة ، فتربص به الدوائر وأراد قتله ، ولكنه كان يخشى مكانته عند أبى مسلم وصداقته له ، إذ كان كاتباً لابراهيم الإمام ، وهو الذى أشار على الإمام باختيار أبى مسلم لزعامة الشيعة فى خراسان .

وذات يوم جلس أبو العباس يسمر مع أخيه أبى جعفر و بعض رجاله ،

فذكروا ماصنع أبو سلمة بهم ، فقال رجل من الحراس :

— مايدريكم ، لعل ماصنع أبو سلمة كان من رأى أبى مسلم . .

فقال أبو العباس :

— لئن كان ذلك ، فإننا أمام بلاء إلا أن يدفعه الله عنا . .

وتفرق المجلس ، فدعا أبو العباس أخاه أبا جعفر ، وقال له « ما ترى » ؟ فأجابه « الرأى رأى أمير المؤمنين » .

فقال أبو العباس :

— ليس منا أحد أخصّ منك بأبى مسلم ، فاخرج إليه حتى تعلم ما رأيه ، فليس يخفى عليك لو لقيته فإن كان يرى ما يراه أبو سلمة ، أخذنا لأنفسنا ، وإن لم يكن استرحنا من الشك فيه .

***

وعلم أبو مسلم بخروج أبى جعفر إلى خراسان ، إذ كان أبو الجهم بن عطية وزير أبى العباس جاسوسه عليه ، وكان يكاتبه سراً ، فلما كان أبو جعفر من « مرو » على بعد فرسخين تلقاه فى الناس ماشياً ، وحياه ، فقبل يده وركب معه ، حتى دخل المدينة ، فمكث ثلاثة أيام لا يخاطبه فى شىء . . . وفى اليوم الرابع قال له :

— ما أقدمك يا أبا جعفر إلى خراسان ؟

فتكلم بكلام أدرك منه أبو مسلم ما يريده ، فتظاهر بالنقمة من أبى سلمة ، وقال :

— فعلها أبو سلمة ، وحقت عليه كلمة الإمام ، فقد أوصانى بقوله : « وأيما غلام بلغ خمسة أشبار فاتهمته ، فاقتله » وسأ كفيكموه . . .

ودعا بأحد رجاله ، وأمره أن يذهب إلى الكوفة ، وأن يقتل أبا سلمة حيث وجده ، فذهب الرجل ، واختبأ له ذات ليلة فى الطريق حتى إذا خرج من قصر أبى العباس بعد سمره قتله ، وفرّ فى الظلام ، وشاع فى الناس أن الخوارج قتلوه .

فعل أبو مسلم هذه الفعلة لينفى عن نفسه التهمة التى اتهموه بها من ميله للعلويين بعد مقتل إبراهيم الإمام ، ولكن الدسائس ضده كانت تعمل فى قصر الخليفة لهدمه هو وأنصاره الفارسيين ، وزاد فى ذلك حسد أبى جعفر له منذ كان والياً على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان فى عهد أخيه ، وليس حوله من الأشياع ما حول أبى مسلم فى خراسان وما جاورها ، وكان يخشى استفحال أمره ، وتفاقم خطره ، فأخذ يتحرش به ، ويدس له عند شقيقه ، ويحرّضه عليه ، ويقول :

— لستَ خليفة ، ولا أمرك بشىء إن تركت أبا مسلم ، ولم تقتله .

— وكيف ذلك ؟

— والله ما يعبأ بنا ، ولا يصنع إلا ما يريد .

— اسكت يا أبا جعفر واكتمها . . .

***

وأراد أبو مسلم الخراسانى أن يحج بالناس سنة ١٣٦ فبعث إلى

أبى العباس يستأذنه ، فلما بلغه الكتاب أرسل إلى أخيه أبى جعفر أن أبا مسلم كتب يستأذن فى الحج ، فاكتب إلىّ أنت تستأذن فى الحج بالناس . فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك ، فكتب أبو جعفر إلى أخيه ما أراد ، فأذن له ، وعلم أبو مسلم أنه سيخرج معه للحج فقال لخاصّته :

— أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا العام . . . ولكن صبراً . . !

و بلغت هذه العبارة أبا جعفر فدخل إلى الخليفة أبى العباس وقال له :

— أطعنى واقتل أبا مسلم . فوالله إن فى رأسه لغدرا . . !

— وما تقول فى جهاده ، و إقامته لدولتنا ، وقضائه على عدونا .

— والله لو بعثت سنّوراً مكانه لبلغ مثلما بلغ .

— وكيف نقتله ؟ . . .

— إذا دخل عليك أتيتُ أنا من خلفه ، فضربته ضربة آتى بها على حياته .

— وكيف تصنع يا أبا جعفر بأصحابه الذين يؤثرونه على كل شىء ، وهم عشرة آلاف قد جاءوا معه من خراسان .

— لا تخف . . لا تخف . . سيؤول ذلك إلى خير .

— لا . . لا . . يا أخى إننى أخشى شراً . . كفّ الآن عن هذا الأمر . . .

واستمع أبو جعفر لرأى أخيه فكف عن الغدر به ، وسار للحج مع أبي مسلم الخراسانى ، فلما كانا بمكة تقدمه بالناس ، وصار لا يبالى بأبى جعفر ونفر بعد موسم الحج قبله ، وفى هذا الحين جاء أبا جعفر كتابٌ بموت أبى العباس واستخلافه مكانه ، فلما بلغ ذلك أبا مسلم كتب إليه يعزيه بأمير المؤمنين، ولم يهنئه بالخلافة ، ثم لم يذهب للحاق به، ومقابلته، فاشتدَّ حقد أبو جعفر عليه ، وقال لوزيره أبى أيوب « اكتب إليه كتاباً غليظاً » فلما أتاه هذا الكتاب ، عاد فبعث إليه بتهنئته ، ثم أقبل عليه فى الأنبار يعتذر له عما فرط منه .

***

تظاهر أبو جعفر بالرضا عن أبى مسلم، وقربه وأكرمه ، إذ كان يريده وقتئذ لمحاربة ابن عمه « عبد الله بن على » الذى أرد البيعة لنفسه بعد موت أبى العباس ، فخرج إليه أبو مسلم فى جيش كبير وانتصر عليه ، وأخذ خزائنه ومتاعه ، ولم يبعث بها لأبى جعفر المنصور ، فأرسل إليه رسولاً يطالبه بها ويحصى غنائمه ، فغضب أبو مسلم وقال :

— أأمين على الدماء ، خائن فى الأموال . . ؟ ؟

وتكلم بكلام شديد فى أبى جعفر ، ثم أرسل إليه هذا الكتاب :

« أما بعد ، فإنى اتخذت رجلا إماماً ودليلا على ما افترضه الله على خلقه ، وكان فى محلة العلم نازلا ، وفى قرابته من رسول الله (ص) قريباً فاستجهلنى بالقرآن ، وحرَّفه عن مواضعه طمعاً فى قليل قد تعافاه الله إلى

خلقه ، فكان كالذى ولّى بغرور . وأمرنى أن أجرّد السيف وأرفع الرحمة ، ولا أقبل المعذرة ، ولا أقيل العثرة ، ففعلت توطيداً لسلطانكم حتى عرّفكم الله إلى من كان جهلكم ، ثم استنقذنى الله بالتوبة . فإن يعفُ فقديماً عُرف بالعفو ، ونسب إليه ، وإن يعاقبنى فبما قدمت يداى . وما الله بظلام للعبيد » .

أرسل أبو مسلم هذا الكتاب إلى أبى جعفر المنصور ، وخرج قاصداً خراسان يريد الثورة ، وخرج المنصور من الأنبار إلى المدائن ونزل بالرومية ، فوصله الكتاب بها فغضب غضباً شديداً ، وأمر أبا أيوب أن يحتال عليه ولا يدعه يفرّ فأوفد إليه أبا حميد المرْوروزى وقال له :

— قل له إن أمير المؤمنين رافع قدره ، وصانع به ما لم يصنع بأحد إنْ هو صلح ورجع ، فإن أبى أن يرجع فقل له ، يقول لك أمير المؤمنين لستُ للعباس ، وأنا برىء من محمد أن مضيتَ مشاقاً ولم أطلبك ، ولم أقاتلك بنفسى ، ولو خضتَ البحر لخضتُه وراءك ، ولو اقتحمتَ النار لاقتحمتُها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك .

فذهب أبو حميد ، وأبلغه ، فسخر أبو مسلم من هذا التهديد ، فقال أبو حميد :

— إنك لم تزل أمين آل محمد يعرفك بذلك الناس ، وما ذخَر الله عنده من الأجر فى ذلك أعظم مما أنت فيه من دنياك ، فلا تحبط أجرك ، ولا يستهوينّك الشيطان .

فأجاب أبو مسلم

— ومتى كنت تكلمني بهذا الكلام يا أبا حميد ! ...

— إنك دعوتنا إلى هذا ، وإلى طاعة بني العباس ، وأمرتنا بقتال من خالفهم ، وأهبتَ بنا من أرضين متفرقة ، وأسباب مختلفة ، فجمعنا الله على طاعتهم ، وألَّف بين قلوبنا بدعوتهم ، وأعزنا بنصرنا لهم ، ولم نلق منهم رجلا إلا بما قذف الله في قلوبنا من حبهم . حتى أتيناهم ببصائرنا طائعين مخلصين . أفتَريدُ حين بلغنا غاية مُنانا ، ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا ، وتفرِّق كلمتنا ، وقد قلتَ لنا من خالفكم ، فاقتلوه وإن خالفتُكم ، فاقتلوني .

فلما سمع أبو مسلم هذا القول ، خشي الفتنة وأسلم نفسه للقدر . . !

***

نجحت حيلة أبي أيوب ، وأقبل أبو مسلم إلى المنصور بالرومية ، وكانت سنة ١٣٧ هـ فأكرمه ورحب به ، وأخفى تدبير غدره ، وصرفه في اليوم الأول للراحة من عناء الحرب ومشقة السفر ، كما أشار عليه وزيره ، ثم كان اليوم الثاني ، فأعدَّ له عثمان بن نهيك رئيس حرسه وأصحابه الأربعة خلف ستار المجلس .

ودخل أبو مسلم على المنصور ومعه سيف وعليه قباء أسود ، تحته ثياب خز ، فسلم وجلس على وسادة لم يكن بالمجلس غيرها ، ووراءه القوم بسيوفهم مختبئين وكان المنصور عابس الوجه ، جامد النفس ، ومرت بينهما

فترة من السكون الرهيب ، ثم نظر المنصور إليه ، وقال :

— أخبرني ياعبد الرحمن عن نصلين أصبتهما في متاع عبد الله بن على؟

— هذا أحدهما معى يا أمير المؤمنين . . .

— أرنيه . . .

فناوله أبو مسلم السيف ، فهزه أبو جعفر بيده وقال « هذا سيف عباسي ، لا سيف مسلمي ! » ثم وضعه تحت وسادته ، وأقبل عليه يعنفه ، ويقول :

— أخبرني عن كتابك إلى أبي العباس تنهاه عن الموات[1] أردت أن تعلمنا الدين ؟ ! ...

— لا. بل ظننتُ أن أخذه لايحل ، فكتب إلىّ ، فلما أتاني كتابه زدتُ إيماناً بأن أمير المؤمنين وأهل بيته معدنُ العلم .

— ولماذا تقدمتَ أمامى فى طريق الحج ؟ . .

— كرهتُ يا أمير المؤمنين اجتماعنا على الماء فيضرّ ذلك بالناس ، فتقدمتُك التماس المرفق .

— ولماذا قتلتُ سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا ، وهو شيخ نقبائنا قبل أن ندخلك فى شيء من هذا الأمر ، وقد أنزلك بداره فى خراسان ؟

— أراد الخلاف ، وشككتُ فيه ، فقتلته . . .

---

(١) الموات الأرض الخالية من السكان التى لاينتفع بها أحد . وهو يريد بأبى العباس سلفه وشقيقه أمير المؤمنين عبد الله بن محمد .

— فقولك حين أتاك الخبر بموت أبى العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلىّ ، تقدم فنرى من رأينا ، ومضيت ، فلا أنت أقمت حتى نلحقك ، ولا أنت رجعت إلينا .

— منعنى من ذلك ما أخبرتك به من طلب المرفق بالناس ، فقلتُ نأتى الكوفة ، فليس عندى لأمير المؤمنين خلاف .

— وجارية عبد الله بن على ، أردت أن تتخذها لنفسك ؟ ! . .

— لا ، ولكنى خفتُ أن تضيع ، فحملتها فى قبة ، ووكلت بها من يحفظها .

— وما رأيك فى مراغمتك وخروجك إلى خراسان . . أكنت تريد أن تفرّ من وجهى ؟

— ظننتُ أن أمير المؤمنين قد دخله شىء فقلت آتى خراسان ، فاكتب إليك بعذرى .

— وما قولك فى أبى سلمة الخلال . . ألم يصدر عن رأيك فى تأييده للعلويين ؟ !

— يا أمير المؤمنين لمَ يقال لى هذا بعد حسن بلائى فى دولتك ، وجهادى فى نصرة آلك ، وفتكى بجيوش أعدائك ؟

— يا بن الخبيثة ، والله لو كانت مكانك أمَة سوداء لفعلت مثلما فعلت . وانما بلغتَ الذى بلغتَه بجدّنا وريحنا . ولو كان ذلك اليك ما أتيتَ شيئاً ولا أصبتَ فتيلا . . ألستَ الكاتب إلىّ تبدأ بنفسك ،

والكاتب تخطب أمينة بنت على ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس . لقد ارتقيت مرتقى صعباً ! . .

— عفواً يا أمير المؤمنين ومعذرة .

— لاعفوَ اليوم . . قتلنى الله إن لم أقتلك . . .

فأقبل عليه أبو مسلم يعتذر ، وسقط على قدمه يقبلها ، فركله بها ، وهو يقول والله مازدتنى إلا غضباً ، ثم صفق بيديه .

* * *

سمع عثمان بن نهيك وصحبه تصفيق أبى جعفر ، فخرجوا من خلف الستار كالذئاب شاهرين السيوف ، فنظر إليهم أبو مسلم ، وقال :

— واتعساه . . أنا أبو مسلم . . .

فقالوا :

— بل أنت أبو مجرم . . .

فصاح :

— العفو .. العفو . . يا أمير المؤمنين أنشدك الله .

وتعلق به ، واستجار بعطفه ، فدفعه المنصور ، وصرخ فى رجاله صرخة مرعبة :

— اضربوا قطع الله أيديكم . . .

فضربه عثمان ضربة خفيفة قطعت نجاد سيفه ، وجد أصحابه ، فصاح أبو مسلم :

— استبقنى لعدوِّك يا أمير المؤمنين . .

— لا أبقانى الله إذن . وأى عدوٍّ لى أعدى منك ؟ .

— ربَّاه ألا قوة ، الا مغيث . .

وهمّ أبو مسلم أن يأخذ سيفه من تحت وسادة المنصور ليدافع به عن نفسه فصرخ مرة أخرى فى رجاله صرخة هائلة :

— اضربوا قطع الله أيديكم . . .

فضربه أحدهم فقطع رجله وأعتوره الباقون بالسيوف ضرباً وطعنا حتى قتلوه وذبحوه وأدرجوه فى البساط . .[1]

وبعد قليل أذن لعيسى بن موسى — أحد الولاة — بالدخول على أمير المؤمنين ، وكان عيسى يعرف مكانة أبى مسلم ، ويقدر بلاءه فى سبيل الدعوة العباسية . فلما دخل سأل عن أبى مسلم ، فقال المنصور :

— كان ها هنا آنفا . . .

— يا أمير المؤمنين قد عرفتَ طاعة أبى مسلم لك ، ورأىَ الإمام ابراهيم فيه . .

— يا أنوَكُ ، والله ما أعلم فى الأرض عدواً لى أعدى منه . . هاهو ذا فى البساط

وفتحوه له ، فلما نظر عيسى إلى جثته انخلع وارتاع وقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون

---

(١) قتل أبو مسلم لخمس بقين من شعبان سنة ١٣٧ هـ

فقال المنصور : — خلع الله قلبك ، وهل كان لكم رأى أو سلطان ، أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ !

ثم دعا المنصور بجعفر بن حنظة ، فدخل عليه فقال له :

— ما تقول فى أبى مسلم ؟

— إن كنتَ أخذت يا أميرالمؤمنين شعرة من رأسه ، فاقتل ثم اقتل.

— وفقك الله . . .

وأمره بالقيام ، والنظر إلى أبى مسلم مقتولاً فلما رآه قال : « عدَّ هذا اليوم يا أمير المؤمنين أول يوم فى خلافتك » ثم دعا المنصور اسماعيل ابن على ، فدخل وقال : — يا أمير المؤمنين إنى رأيت فى ليلتى هذه كأنك ذبحت كبشاً ، وإننى توطأتُه برجلى .

فضحك أبو جعفر ضحكة عالية ، وقال : نامت عينك يا أبا الحسن . هذا هو الكبش ، قم فصدِّق رؤياك ، فقد قتل الله الفاسق .

فقام اسماعيل إلى الموضع الذى كانت فيه الجثة وتوطأها برجله . . ! !

ثم دعا المنصور أبا اسحاق رئيس حرس أبى مسلم فقال له :

— أأنت المتابع لعدو الله على ما كان أجمع ؟ . .

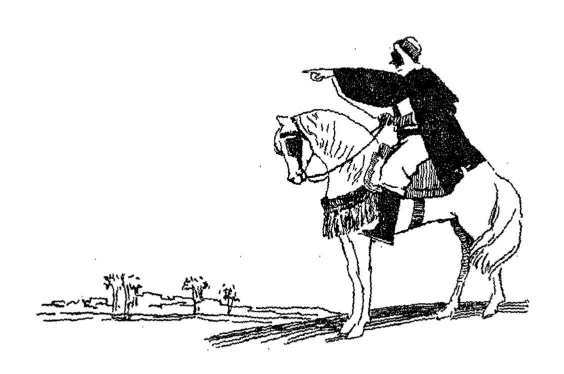
فسكت ، وأخذ يلتفت يميناً وشمالا حذراً وخوفاً فقال المنصور :

— لا تخف تكلم بما تريد ، فقد قتل الله عدوه ! .

وأمر باخراج جثته إليـه ، فلمـا رآها خرَّ ساجدا وأطال السجود ، فقال المنصور : — ارفع رأسك وتكلم . . .

فقال اسحاق : — الحمد لله يا أمير المؤمنين ، فقد آمننا الله بك ، وما كنا لنأمن أبا مسلم يوماً واحداً ، وما أحببته ، ولا جئته منذ صحبته مرة إلا وقد أوصيت وتكفنت .

فأجازه المنصور ، ودعا غيره من رجال ابى مسلم ، فتكلموا بكلام مثله ، فأمر بتوزيع الأموال عليهم وعلى جنودهم ، ففرحوا بها ، وأنساهم العطاء ، واجب الوفاء وخرجوا من عنده وهم يهتفون بفضله ، ويشهدون بعدْله ، وقد باعوا قائدهم وزعيمهم بالدراهم . . ! !



(٧)

في السجن

انتقل صراع العباسيين من أجل الخلافة بعد الأمويين إلى العلويين من أولاد على بن أبي طالب ، فوقعت بين الفريقين حروب ووقائع وهذه القصة تصور جانباً من هذا الصراع ، وتقف القارىء على حجة أبى جعفر المنصور فى مناهضتهم ، فى حوار كتابى بينه وبين محمد بن عبد الله العلوى وهو من أبرع أمثلة الحوار الأدبى السياسى .

وحج أبو جعفر المنصور حتى إذا وصل « الربذه » بالقرب من المدينة بعث فى طلب محمد وابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن العلوى[1] فلم يجدهما ، وكانا قد خرجا عليه ، وأفلتا منه فسارت رسله فى أعقابهما للقبض عليهما ، والقضاء على دعوتهما بالخلافة لأولهما، وتبعهما فى ذلك شيعة كثيرة فى المدينة وخرسان كانت تشايع العلويين سراً وجهراً ، وتراهم أولى بالأمر من بنى العباس ، فنقم عليهم أبو العباس عبد الله ، ثم نقم عليهم من بعده أبو جعفر المنصور ، واستحلّ دماءهم ، كما استحل دماء الأمويين .

(١) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

ولما تعذر عليه القبض على زعيمى العلويين محمد وابراهيم ، اشتد غضبه ، وسجن بعض آلهما ، وأخذ العهود والأيمان على البعض الآخر ممن كانوا لا يظهرون الدعوة ، وكان فيهم محمد بن عمرو [(١)] والد زوجة ابراهيم فاستدعاه إليه ، وقد علم أبو جعفر أن ابنته كانت تتخضب وتتعطر ، ثم حملت ، فلما دخل عليه رآه مغضباً ، فحياه ، فلم يرد التحية ، ولم يدعه للجلوس ، ثم نظر إليه ، وقال :

— إيه يا حانث . . !

فقال ابن عمرو :

— سبحان الله . . والله لقد عرفتنى بغير ذلك صغيراً وكبيراً .

أبو جعفر :

— ألم تعطنى الأيمان ألا تغشنى ، ولا تمالئ علىّ عدوًّا . ؟ !

ابن عمرو :

— بلى يا أمير المؤمنين ، قد فعلت .

أبو جعفر :

— أو لم تعاهدنى أن تدلنى على زوج ابنتك ابراهيم إذا علمت مكانه؟

ابن عمرو :

— بلى يا أمير المؤمنين ، وما علمت .

أبو جعفر :

---

(١) هو محمد عمرو بن عثمان أخو بنى حسن لأمهم وأمهم جميعاً فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب .

— وقد أقسمت لى مراراً أن ابراهيم لا يدخل بيته ، ولا يلمُّ بزوجته أبداً . . !

ابن عمرو :

— نعم ولم أحنث فى أيمانى ، ولم أنقض عهدى يا أمير المؤمنين .

أبو جعفر :

— إذن فمن حملت ابنتك ؟ !

ابن عمرو :

— إنها حملت من زوجها ، وقد ظننتُ أنه ألم بها فى غفلة منى .

أبو جعفر :

— أو لم تدخل على ابنتك متخضبة متعطرة ، ثم تراها حاملاً ، فلا يروّعك حملها . . فأنت إما أن تكون حانثاً أو ديوثاً ، والله إنى لأهمُّ برجمها . . !

ابن عمرو :

— أما أيمانى فهى علىّ إن كنت دخلت لك فى غش علمتُه . وأما ما رميتَ به هذه الجارية ، فإن الله أكرمها عن ذلك بولادة رسول الله (ص) إياها

أبو جعفر :

— إخسأ . . فو الله ما صدقتَ قولاً ، ولا وفيتَ عهداً ولا حفظت يميناً . . .

ثم نظر إلى رجاله ، وقال :

— خذوه فغلوه ثم شقوا ثيابه ، ثم اضربوه مائة وخمسين سوطاً .

فأخذه الجلادون، وفعلوا ما أمر به أمير المؤمنين ، و بينما كانوا يضربونه أصاب سوطٌ وجهه ، فقال ابن عمرو :

— ويحكم . . . ويحكم كفوا عن وجهى ، فإن له حرمةً من رسول الله (ص)

فقال أبو جعفر :

— لا تسمعوا له . . بل الوجهَ الوجهَ ، والرأسَ الرأسَ . . !

فضربه الجلادون على وجهه ورأسه ثلاثين جلدة ، ثم دعا أبو جعفر بساجور[1] من خشب ، فوضع فى عنقه ، وشدت به يده ، وأُخرج مشهَّراً به فى الأسواق ، فصادفه فى الطريق عبد أعتقه ، فقال « بابى أنت وامى » وخلع رداءه ، وألقاه عليه ، فقال ابن عمرو :

— والله لشفوف جسمى أشدُّ عندى من الضرب الذى نالنى

ثم أُخذ إلى السجن ، فألقى فيه مع آل الحسن

***

كان العباسيون حينما اضطرب أمر بني أمية وقبل أن يظهروا عليهم قد بايعوا العلويين من أبناء فاطمة فى ليلة تشاور فيها بنو هاشم بمكة فيمن يعقد له بالخلافة . وقد وقع الرأى على مبايعة محمد بن على بن الحسين المعروف بابن الحنفية ، فلما جاءته الوفاة أوصى بها لابنه عبد الله بن محمد فبايعه العلويون والعباسييون ولما سمَّه سليمان بن عبد الملك أوصى بها لابن

(١) الساجور خشبة تعلق فى عنق الكلاب ، وتطلق على القيد

عمه محمد بن علی والد أبی جعفر وأبی العباس . لكن العلويين عادوا يطالبون العباسيين بالخلافة ، وكان فی مقدمتهم محمد بن عبد الله صاحب البيعة ، وأخوه ابراهيم وانضم إليهما خلق كثير .

هال ذلك أبا جعفر المنصور ، وحشد عزمه وجهوده للقضاء على هذه الدعوة ، ورأى أن يتعقب زعماءها فی كل مكان ، فبثَّ العيون فی الحجاز والعراق وخراسان ثم سافر للحج ، ونزل بالربذه بالقرب من المدينة ، و بعث فی طلب عبد الله بن الحسن والد محمد وابراهيم ، فلما حضر قال له :

— يا أبا محمد قد علمت ما أعطيتنی من العهود والمواثيق ألا تبغنی سوءاً ؛ ولا تضمر لی كيداً .

فقال عبد الله :

— فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين .

قال أبو جعفر :

— فأين ابناك محمد وابراهيم ؟

فقال عبد الله :

— والله لا أدری ، ولعلهما منهومان بالصيد ، وهما لا يشهدان منذ حين مع أهلهما خيراً ولا شراً ؛

قال أبو جعفر :

— فأنت وآلك محبوسون حتى تدلوا عليهما . . . !

وأمر أبو جعفر ، فوضعت الأغلال فی أعناقهم وأيديهم وأرجلهم . . فالتفت عبد الله إليه وقال :

— يا أبا جعفر والله ما فعلنا بأسرائكم هكذا يوم بدر[1] . . . !

فقال أبو جعفر :

— إخسأ . . لا رُحمت . .

وتفل عليه . . . !

***

سجن المنصور بني حسن بالمدينة ، ثم نقلهم إلى العراق ، وكانوا ستة عشر رجلا ، وكان السجن هناك غرفة مظلمة تحت الأرض لا تدخلها الشمس تدعى « المطبق » لا يعرفون فيها أوقات الصلاة إلا بأحزاب القرآن يقسمونها على أنفسهم يقرأونها ويستعينون بذلك فى معرفة هذه الأوقات . وكان إذا مات أحدهم ترك معهم أياماً حتى يجيف ، وقد مات عبد الله بن الحسن ، وأخوه ابراهيم على هذه الصورة .

وبقى من عاش منهم فى السجن أربع سنوات أو تزيد . وكان إبراهيم ابن عبد الله ، وأخوه محمد فى تلك المدة قد جيَّشا جيوشاً وحاربا أبا جعفر المنصور ، فظهر أبو جعفر على ابراهيم ، وقتله وبدد شمله . أما محمد فقد طال أمره ، فهادنه أبو جعفر وبعث إليه بخطاب يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . . إنما جزاء الذين يُحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض . ذلك لهم خزى

(١) كان العباس بن عبد المطلب جد العباسيين قبل أن يسلم ، فى جيش قريش الذى حارب المسلمين يوم بدر

فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم . . . . » الخ

وأخذ يعده فى هذا الكتاب إذا تاب ورجع أن يؤمّنه ، و يطلق سراح من سجنهم من آله ، و يعطيه الف الف درهم .

فأجابه محمد بخطاب يدعوه إلى اتّباعه ، و يذكره بفضله وحقّ العلويين فى الخلافة ويقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله . إلى عبد الله بن محمد . .

« طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكّن لهم فى الأرض، ونرىّ فرعون وهامان وجنودهما ما كانو يحذرون»

« وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت علىّ ، فإن الحق حقنا ، و إنما ادعيتم هذا الحق بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، و إن أبانا علياً كان الوصى، وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته ، وولده أحياء ، ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا ، وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللُعناء ، ولا الطُرداء ولا الطلقاء، وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة والفضل . ونحن بنو أم رسول الله (ص) فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، و بنو ابنته

فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختارنا وإختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد (ص) ، ومن السلف أولهم إسلاماً علىٌّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة . وأول من صلى بالقبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدى شباب أهل الجنة .

« ولقد ولد هاشم علياً مرتين، وعبد المطلب ولد حسناً مرتين، ورسول الله ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ، وإنى أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أباً ، لم تعرّق فىّ العجم ، ولم تنازع فىّ أمهات الأولاد، فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام حتى اختار لى فى الجنة والنار ، فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة وأهونهم عذاباً فى النار ،وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار .

« ولك الله علىّ إن دخلت فى طاعتى ، وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حدًّا من حدود الله ، أو حقًّا لمسلم أو معاهد . فقد علمت ما يلزمك من ذلك ، وأنا أولى الأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلى، فأى الأمانات تعطينى : أمان ابن هبيرة ، أم أمان عمك عبد الله ، أم أمان أبى مسلم ! »

***

قرأ أبو جعفر هذا الخطاب فحنق واشتد غضبه ، فقال له وزيره أبو أيوب :

— دعنى يا أمير المؤمنين أجيبه ، على ما افترى .

فقال أبو جعفر :

— يا سليمان ليس ذلك إليك إذا نحن تقارعنا بالأحساب ، فدعنى وإياه . . !

ثم كتب له أبو جعفر هذا الكتاب النادر فى أسلوبه وقوة محاجته ، وبراعة دفاعه ، فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعد ، فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك ، فاذا جُلُّ فخرك بقرابة النساء لتضلَّ به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة الأولياء ، لأن الله جعل العم أباً وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحماً وأعظمهن حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

« وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا ابناً . ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة ، رُزقه عبد الله أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة . ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء . قال الله عز وجل (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين) .

« ولقد بعث الله محمداً عليه السلام ، وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان [1]

(١) يشير إلى عميه حمزة والعباس .

أحدهما أبى . وأبى اثنان[1] أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه و بينهما إلاً ولا ذمة ولا ميراثاً .

« وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً ، وابن خير الأشرار. وليس فى الكفر بالله صغير، ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ، ولاينبغى لمؤمن أن يفخر بالنار ، وسترد فتعلم ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

« وأما ما فخرت به من فاطمة أم على ، وأن هاشماً ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلده هاشم إلا مرة ولا عبد المطلب إلا مرة .

« وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أما وأباً ، وأنه لم تلدك العجم ، ولم تعرّق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً ، فانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك وفخرت على من هو خير منك نفساً وأباً وأولاً وآخراً إبراهيم[2] ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد . وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن حسين وهو لأم ولد ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن. وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على، وجدته أم ولد ،

(١) يشير إلى عميه الآخرين أبو طالب ، وأبو لهب .
(٢) ابن مارية القبطية

ولهو خير من أبيك . ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ، ولهو خير منك

« وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الإمامة ، فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً ، ومرّضها سراً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون .

« وأما مافخرت به من على وسابقته ، فقد حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل ، فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها . أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقُتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير . وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكّم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه ، ثم كان حسن فباعها معاوية بخرق ودراهم ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ورفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه !

« ثم خرج عمك حسين بن عليّ على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه اليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم

على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان وقتلوا يحيى بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلا وطاء فى المحامل كالسبى المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنينا سلفكم وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت . ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين مجتمعاً عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكّرناهم فضله وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه .

« ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته فنازعنا فيها أبوك فقضى لنا عليه عمر فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة فلم يتوسل عمر إلى ربه ولم يتقرب إليه إلا بأبينا حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث وأبوك حاضر لم يتوسل به . ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايته وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده . فلم يبق شرف فى جاهلية ولا إسلام فى دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورّثه .

« وأما ماذكرتَ من بدر فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب

وعياله وينفق عليهم للأزمة التى أصابته ، ولو لا أن العباس أُخرج إلى بدر كرهاً لمـات طالب وعقيل جوعاً والمسا جفان عُقبة وشَيبة . ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبة وكفاكم النفقة والمؤونة ، ثم فدى عقيلاً يوم بدر ، فكيف تفخر علينا . وقد عُلنا كم فى الكفر وفدينا كم من الأسر وحُزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم . والسلام عليك ورحمة الله » .

بعث أبو جعفر إليه بهذا الخطاب ، ثم شفعه بجيش ظهر على جيش محمد وهزمه وقتله فى سنة ١٤٥ هـ ، واستتب الأمر بعده للعباسيين !..



انتقام

هو انتقام وزير من وزير ، وسياسى من سياسى . فهذا الربيع بن يونس وزير أبى جعفر المنصور يحقد بعد زوال عهده على أبى عبد الله معاوية وزير الخليفة المهدى وينقم عليه، ويدبر له ما تراه فى هذه القصة السياسية . ا

ودخل المهدى على أبيه الخليفة المنصور فى قصر الخلد ، فوجده صامتاً مفكراً ، فأراد الخروج ليتركه فى صمته وتفكيره . واستأذن فى ذلك ، ولكن المنصور ناداه وأجلسه بين يديه ثم نظر إليه فى هدوء وقال له :

— يا أبا عبد الله إنى عزمت أن أوليك الخلافة ، وأخلعها عليك ، فقد مرضتُ وكبرت ، وأصبحت أوثر الراحة على مباشرة الأعمال والنظر فيها واحتمال أعبائها .

فسكت المهدى .

فأعاد المنصور على ولىِّ عهده القول ، فأجابه المهدى :

— دعنى أفكر يا أمير المؤمنين فإنى لا أستطيع أن أجيب الآن عن هـذا الأمر . ثم انصرف إلى رائده وكاتبه أبى عبيد الله معاوية (١)

(١) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار من أهل فلسطين . وقد ضمه المنصور الى المهدى حين أنفذه الى الرى . وبقى فى خدمته الى ما بعد ولايته الخلافة ، وأصبح كاتبه ووزيره

مستبشراً بذلك ، وأنبأه بما عرضه الخليفة ، فقال له :

— اتق الله ، ولا تُظهر لأمير المؤمنين قبولاً . وإذا عاودك ، فقل له : (لا والله لا أتعرض لهذا الأمر ما أبقى الله أمير المؤمنين) فإنه أراد أن يسبرك بما عرضه عليك .

وعاد المهدى إلى أبيه فقال له المنصور :

— يابنى هل فكرت فيما سألتك فيه ؟

فأجاب المهدى :

— مابى قوة على هذا الأمر . ولا والله لا أتعرّض له ما أبقى الله أمير المؤمنين

فقال المنصور :

— سبحان الله . من صدَّك عنه ؟ !

— لا لا . . أعفنى يا أبى . فإنى لا أنهض به ما بقيت ، وأرجو أن يطيل الله عهدك ، ويمتعنا بحياتك .

— أو شاورت فى ذلك أحداً ؟ ؟

وكرر المنصور السؤال عليه ، فقال المهدى :

— شاورت كاتبى ورائدى أبا عبيد الله معاوية ، فكان من الناصحين .

فأطرق المنصور لحظة ، ثم قال .

— علىّ بمعاوية . . !

فلما حضر قال له :

— ما هذا الذى ناظرك فيه المهدى يا معاوية . ولماذا رأيت ألا يقبل ؟!

فأجاب معاوية :

— أ أصدق أمير المؤمنين ، وأنا آمن ؟ . .

قال له :

— هات . . ولم لا تصدقنى . . !

فقال معاوية :

— إنه والله ما عرضتَ عليه هذا يا أمير المؤمنين وأنت تريد أن توليه الخلافة ، وإنما أردت أن تختبر عقله ، وتسبر خلقه ، وما كنت لتطيب نفساً بترك ما أنت فيه من هذا الأمر . !

قال المنصور :

— وكيف توهمت ذلك ؟ . . .

فقال :

— لأنى سمعتك يوماً تقول إنى أستيقظ بالليل ، فأدعو بالكتب ، فأضعها بين يدى ، وأدعو بالجارية وآمرها أن تمرُخ[1] ظهرى ، فتفعل وأنا مقبل على كتبى وتدبيرى والنظر فى أمورى ، فعلمت أنك لا تدع شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع ، وتؤثر به غيرك .

فقال المنصور :

---

(١) مرخ الشىء دهنه .

— ما كنت أرى أن أحداً يتفقد ما تفقدتَه . وقد أصبتَ والله الرأى وأحسنت القول بارك الله عليك .

مضت بضعة أشهر على هذا الحادث ، ثم كان أن مرض أبو جعفر بعلة فى معدته ، فكان لا يستمرئ طعاماً ، وحار أطباؤه في علاجه ، واستحضروا له بعض أطباء الهند . وفى ذى الحجة سنة ١٥٨ ﻫ أراد أن يحج إلى بيت الله الحرام عسى أن تظله رحمة الله فى أرضه المقدسة ، فتخف آلامه ، ويزول عنه داؤه ، وخرج مع حاشيته يريد مكة ، وخرج ولىّ عهده المهدى يودعه ، فلما حان الرحيل عن بغداد نظر إلى المهدى ، وقال :

— يا بنىّ إنى ولدت فى ذى الحجة ، ووليت الخلافة فى ذى الحجة . وقد هجس فى نفسى أنى أموت فى ذى الحجة من هذه السنة . وقد حدانى ذلك على الحج ، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فى أمرك توفيقاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة .

فقال المهدى :

— عافى الله أمير المؤمنين ، وأبقاه للدين والدنيا .

قال المنصور :

— يا بنىّ إنى جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلى ، واصطنعت لك من الموالى ما لم يصطنعه أحد من بنى أمية وبنى العباس ،

وبنيت لك مدينة[1] لم يكن فى الإسلام مثلها . ولست أخاف عليك إلا أحد رجلين : عيسى بن موسى ، وعيسى بن زيد ، فأما عيسى بن موسى ، فقد أعطانى من العهود والمواثيق ما قبلته ، فأخرجه من قلبك . وأما عيسى ابن زيد ، فانفق هذه الأموال ، واقتل هؤلاء الموالى ، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به ، ثم لا ألومك » .

وخرج المنصور قاصداً الحج مع وزيره[2] الربيع بن يونس وحاشيته حتى إذا كان فى طريق مكة نزل بيتاً أعد له ، وبينما هو جالس فيه نظر إلى صدر البيت ، فإذا مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ... سنوك وأمر الله لا بد واقع

أبا جعفر هل كاهن أو منجم ... لك اليوم من حرّ المنية مانع

فظن أن بعض أعدائه قد دسّ له ذلك ، فدعا المتولى شؤون هذا البيت وقال له :

— ألم آمرك ألا يدخل المنزل أحد من الدّعار[3] . . ؟ !

---

(١) هى مدينة بغداد بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ واتخذها عاصمة للخلافة العباسية . وكانت قبل ذلك الكوفة ثم الأنبار ثم الهاشمية . وقد بنى المنصور ببغداد قصر الخلد ، وقصر الذهب ، وقصر الرصافة . ثم ابتنى خلفاؤه قصر زبيدة . وقصر التاج ، وقصر الفردوس وقصر المعتصم وقصر جعفر البرمكى الذى سمى فيما بعد قصر المأمون .

(٢) الربيع بن يونس بن محمد بن ابى فروة مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان وقد ولاه المنصور الوزارة . وولى ابنه الفضل الحجابة . وقد أكرمه وقدمه . وكان أكبر وزرائه (٣) الدعار جمع داعر وهو الخبيث الفاجر .

فقال :

— يا أمير المؤمنين . والله ما دخلها أحد منذ فُرغ منها .

قال :

— فاقرأ ما فى صدر البيت .

فقال الرجل :

— إنى لا أرى والله شيئاً مكتوباً فى صدر البيت .

فدعا المنصور كبير حجابه ، وقال له :

— إقرأ ما فى صدر البيت من الشعر المكتوب .

قال :

— لا أرى شيئاً مكتوباً يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور :

— سبحان الله . . إنى أرى أمامى بيتين من الشعر .

ثم أملى على الحاضرين هذين البيتين ، فكتبوها ، وأيقن أنه واهم . . ! وبعد قليل قال لأحد مواليه اقرأ شيئاً من القرآن الكريم يشوقنى إلى لقاء الله تعالى فقرأ : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ! !

فغضب المنصور ، وقال له : « يا أحمق أو ما وجدت شيئاً تقرؤه إلا هذه الآية » ؟ !

فقال المولى : « مُحى القرآن من قلبى الآن إلا هذه الآية » . . . فأمر المنصور بأن يسجن ويوجأ فكاه عقاباً له . ثم تطير من حاله ومن المنزل

الذى نزله ، وأمر بالرحيل فأركبوه فرساً ، فلما خرج مرّ بواد ، فسأل :

— ما اسم هذا الوادى ؟

فقيل له :

— اسمه سقر . . !

قال :

— أعوذ بالله . . . !

وبينما هو راكب كبت به الفرس ، فوقع على الأرض ، وحملوه إلى مضرب نصبوه له ، فنام فيه ليلته ، ثم أصبح ، فدعا وزيره الربيع بن يونس ، فدخل عليه فوجد وجهه باهتاً ، فقال له المنصور :

— يا ربيع . إنى رأيت رؤيا أفزعتنى . . .

قال الربيع :

— خيراً إن شاء الله يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور :

— رأيت رجلاً يقف أمامى وينشدنى شعراً يذكر فيه نهاية أجلى . وما أحسبنى إلا ميتاً في مرضى هذا ، وإنى أريد أن تؤكد البيعة لولدى محمد المهدى .

قال الربيع :

— بل يُبقى الله أمير المؤمنين، ويبلغ المهدى محبتك الدائمة فى حياتك.

فقال المنصور :

— كلا ، فقد دنت منيتى ، واقتربت نهايتى ، واستقبلت آخرتى ، وهأنذا أخرج من الدنيا وغرورها ، وما حمّلتنى من ذنوب وآثام

ثم سكت وثقل لسانه ، وأغمض عينيه ، وأخذ يردد :

— بادرْنى إلى حرم ربى وأمنه ، هارباً من ذنوبى وإسرافى على نفسى.

ولم يزل المنصور كذلك حتى بلغ بئر ميمون ، فقال الربيع :

— هذه بئر ميمون يا أمير المؤمنين ، وقد دخلت الحرم

فقال :

— الحمد لله . . .

وكانت كلمته الأخيرة ، ثم لفظ النفس الأخير . . .

***

فاضت روح المنصور فى طريق مكة ، فأخفى وزيره الربيع موته ، وألبسه الطويلة والدرّاعة ، ووضع على وجهه كلّةً رقيقة يرى منها شخصه ، ولا يفهم أمره ، ثم دخل فوقف منه بالموضع الذى يوهم فيه أنه يخاطبه ، ثم خرج إلى الناس ، فقال لهم :

— إن أمير المؤمنين مفيق بحمد الله ، وهو يقرئكم السلام ، ويقول لكم : إنى أحب أن يوكد الله أمركم ، ويكبت عدوكم ، ويوصيكم أن تجددوا بيعة أبى عبد الله المهدى من بعده .

فأجاب القوم :

— وشفى الله أمير المؤمنين ، ونحن إلى ما يحب أسرع ، وبما يوصى فاعلون .

فعاد الربيع ووقف من المنصور بالموقف الأول كأنما يخاطبه ، ثم خرج إلى القوم ، وقال :

— هلموا إلى البيعة . . .

فأقبلوا كلهم على مبايعة المهدى ، ولما تمت البيعة دخل الربيع إلى سرير المنصور ثم أجهش بالبكاء ، فسمعه القوم ، وأيقنوا أن المنصور قد مات ، فبكى الحاضرون ، ثم حفرت له مائة حفرة دفن فى غيرها لئلا يعرف قبره (١) .

***

مات المنصور ، وطويت صفحة من عصر بنى العباس كلها حوادث وعبر ، وآل الأمر لولى عهده المهدى ، كما آلت الوزارة لكاتبه ورائده أبو عبيد الله معاوية ، وزال ما كان للربيع بن يونس من منصب ونفوذ واسع فى الدولة . وعاد الربيع من الحجاز بعد وفاة المنصور . فبدأ بزيارة أبى عبيد الله معاوية ، فقال له ابنه الفضل :

— يا أبى ، تترك باب أمير المؤمنين المهدى ، وتأتى باب وزيره معاوية . . . !

---

(١) لا يعرف قبر المنصور كما لا تعرف قبور أكثر خلفاء بنى العباس ، وكانوا يفعلون ذلك حتى لا ينبش أعداؤهم قبورهم ، ويمثلون بجثثهم انتقاماً .

فقال الربيع :

— يا بنىّ هو صاحب الرجل ، فليس ينبغى أن نعامله كما كنا نعامله من قبل ، ولا أن نحاسبه بما كان منا فى أمره من المعاونة والنصرة .

ووصل الربيع والفضل إلى باب معاوية فخرج لهما حاجبه . فقال الربيع :

— استأذن لنا على صاحبك .

فذهب الحاجب وعاد ، فقال له :

— إنما أذن لك وحدك يا أبا الفضل .

قال الربيع :

— سبحان الله . . ارجع إليه ، فأعلمه إن « الفضل » معى . . !

فدخل الحاجب ثم عاد وقد أذن لهما معاً ، فلما دخلا على معاوية وجداه جالساً فى صدر مجلسه وقد اتكأ على وسادة ، فلم يقم لهما ، ولا استوى جالساً ، ولا ألقى إليهما شيئاً يجلسان عليه ، بل تركهما على البساط ، ثم جعل يسأل الربيع عن سفره ومسيره من الحجاز ، والربيع يتوقع أن يسأله عما كان منه فى أمر المهدى ، وكيف حفظ البيعة له ولم يتركها تضيع من يده ليتلقفها منافسوه من العباسيين والعلويين . وضاق الربيع بمقامه فى حضرة معاوية ، فأراد أن ينصرف ، فناداه :

— لا أرى الدروب يا أبا الفضل إلا وقد أغلقت ، فلو أقمت . . !

قال الربيع :

— لا أرى الدروب تغلق دونى .

فقال معاوية :

— بلى قد أغلقت . . !

فظن الربيع أنه يريد أن يستريح عنده من تعب سفره ، ثم يسأله فيما بعد عما قام به ، وبذله فى بيعة المهدى ، فقال :

— فأقيم إذن . . .

قال معاوية :

— يا غلام . . هيىء لأبى الفضل موضعاً فى منزل محمد (يعنى ابنه)

فلما رأى الربيع أنه يريد الخروج من داره نهض ، وقال :

— كلا ، فليس يغلق دونى درب .

وخرج منصرفاً ، هائماً على وجهه مفكراً .

فقال له ابنه الفضل :

— قلت لك يا أبى لماذا تترك باب أمير المؤمنين ، وتأتى باب وزيره وكان ينبغى ألا تجىء . . فلما جئت وحجبك . . كان ينبغى ألا تقيم منتظراً . . ثم دخلت عليه فلم يقم إليك ، ولا استوى جالساً . . وقد كان ينبغى أن ترجع ولا تكلمه أبداً . . . !

قال الربيع :

— يابنىَّ أنت أحمق . . !

فقال الفضل :

— وما حمقى ؟ !

قال الربيع :

— إن الصواب كل الصواب لم يكن إلا ما فعلته ، فقد خبرت الرجل . ولكن والله الذى لا اله الا هو ، لأخلعن جاهى ، ولأنفقن مالى حتى أبلغ بمعاوية أشد ما يكره . . . !

* * *

وذهب الربيع يضرب شمالاً ويميناً ، ويفكر فيما يمكر به لأبى عبيد الله معاوية وزير المهدى، لينقض بنيانه ، ويقوّض أركانه ، وإنه لكذلك إذ التقى بيعقوب بن داود[1] ، فسأله هل عنده فى أمره حيلة !

فقال يعقوب : « إنى فكرت فى ذلك فوجدت معاوية ليس بجاهل فى صناعته ، بل إنه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لأنه أعف الناس حتى لو كان بنات المهدى فى حجره ، وليس بمتهم بالانحراف عن هذه الدولة ، فليس يؤتى من ذلك ، ولا هو بمتهم فى دينه لأن عقده وثيق. ولكن ما تريده كله يجتمع فى ابنه عبد الله ، فهو جاحد زنديق »

فقام الربيع ، وصاح « قد أتيت بها » ، وقبّل الرجل بين عينيه ، وقال « أرشدت والله وأذكرتنى ما نسيت » .

---

(١) كان يعقوب بن داود كاتب ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، وكان المنصور حبسه فى المطبق مع آل الحسن ثم أطلقه الخليفة المهدى ، وقربه وكان يساعد الربيع فى الدس على أبى عبيد الله معاوية

ثم أخذ الربيع يدس للمهدى من يخبره عن إلحاد عبد الله وزندقته ، وكان المهدى قد غضب على الزنادقة ، وأخذ فى البحث عنهم ومعاقبتهم ، فلما بلغه أمر عبد الله ابن وزيره معاوية أمر بالقبض عليه ، وجىء به إليه فى حضرة أبيه وحاشيته ورجال دولته .

فقال له المهدى :

— أزنديق أنت ؟

قال :

— نعم

فقال اقرأ :

— وتباركت وعالموك بعظم الخلق . . !

فقرأها ، فقال له أبوه معاوية :

— ما بهذا أدبتك يابنىّ . ولقد علمتك كتاب الله عز وجل :

فأمر المهدى بضرب عنقه . وكان الربيع حاضراً ، فأشار أن يضربه أبوه بسيفه فأمر المهدى معاوية أن يقوم ، فيضرب رأس عبد الله ، فحمل السيف ، وتنحى كأنه يريد أن يفعل ما أمره أمير المؤمنين ، ولكنه ارتعد ، ولم تطاوعه قواه فسقط من يده ، فقال أحد الحاضرين :

— يا أمير المؤمنين شيخ كبير . وله حرمة ، وليس فى طاقته أن يقتل ولده ، ويكفيك غيره ما أردته منه .

فأمر المهدى أحد رجاله ليتولى ذلك ، فصاح عبد الله :

— التوبة يا أمير المؤمنين . . التوبة . . !

فتغافل المهدى عنه ، فقال عافية بن يزيد القاضى :

— إنه يعرض التوبة يا أمير المؤمنين.

قال المهدى :

— والله ما الله أراد بذلك .. اقتلوه . . .

فقتل ، ودفن ولم يستقبل به القبلة

* * *

نجح الربيع فى مكيدته لمعاوية ، وقد أصابه فى أعز شىء لديه ، وأكرمه عليه ، ولكن هل بلغ منه ما يريده . لقد أقسم أن يبلغ به أشد ما يكره وقد بلغ به أشد ما يكره الوالد لنفسه ولولده ، ولكنه لم يبلغ به أشد ما يكره الوزير لجاهه ونفوذه ، فمازال معاوية كاتباً للمهدى ووزيراً له ، فماذا يفعل ليكيد له فى ذلك ، ويحرمه من هذا الجاه وذاك النفوذ ؟ . . .

أتى يوماً إلى أحد خدم المهدى وجواسيسه ، وقال له :

— لك ثلاثة آلاف دينار إن فعلت شيئاً لم يضرك . !

قال الخادم :

— وما هو ؟

قال :

— إذا دخل أبو عبيد الله معاوية على المهدى ، فصار بحضرته ، قبضت على سيفه ، ومشيت إلى جانبه . فإذا أنكر المهدى ذلك قلت له :

— يا أمير المؤمنين . قتلت ابنه بالامس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ، ومعه سيفه اليوم .

ففعل الخادم ذلك . . فكان أكبر ما أوحش المهدى من وزيره معاوية ، وأخذت مكانته تنقص فى نظره ومكانة يعقوب بن داود ، والربيع بن يونس تزيد .

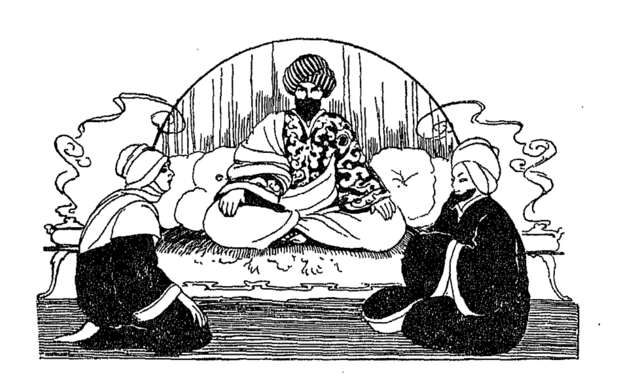
ودخل معاوية على المهدى ، فعرض عليه شأناً من شؤون دولته ، فجعل يصيح فيه ، ويشتمه ، ثم أمر به ، فجرّ من رجله حتى خرج ، ثم حبس . . وكان فى المجلس الشاعر أبو العتاهية ، فأنشد المهدى :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه عذاباً كلما كثرت لديه
تصيب المكرمين لها بهون وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شىء فدعه وخذ ما أنت محتاج اليه

فتبسم المهدى . وقال أحسنت ، فقام أبو العتاهية ، وقال :

« والله يا أمير المؤمنين ما رأيت أحداً أشد اكراماً للدنيا ، وأصون لها ، وأشح عليها من هذا الذى جرّ برجله الساعة . ولقد دخلت إلى أمير المؤمنين ، ودخل وهو أعز الناس فما برحت حتى رأيته أذل الناس ، ولو رضى من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحواله ولم تتفاوت » ! . .

وقد عزل المهدى معاوية من الوزارة سنة ١٦٣هـ وولاها يعقوب بن داود ، ثم عزله عن ديوان الرسائل وولاه الربيع بن يونس ، فعاد اليه جاهه ونفوذه بعد ما بذل من دسّ ومكر وأشبع نفسه من كيد وانتقام . . !



مصرع بشار

هذه قصة بشار ومأساته الأليمة تصور حياته الأدبية والسياسية والاجتماعية ، وما وقع بينه وبين الخليفة المهدى ووزيره مما أدى إلى مصرعه . . . !

واستأذن على « المهدى[1] » وزيره يعقوب بن داود وهو فى قصر[2] الرُّصافة ببغداد فأذن له ، فلما دخل رآه متجهماً كئيباً على غير عادته ، فأشار اليه بالجلوس وهو ينظر اليه فى عجب ودهشة ، فجلس الوزير بين يدى الخليفة صامتاً مفكراً ، فقال المهدى :

— ما وراءك يا يعقوب ؟

قال يعقوب :

— لا شىء يا أمير المؤمنين . . لا شىء . . . !

---

(١) هو محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور ثالث خلفاء بنى العباس . تولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ ، وتوفى سنة ١٦٩ هـ وهو ابن ثلاث وأربعين سنة

(٢) لما بنى أبو جعفر المنصور بغداد سنة ١٤٥ هـ أمر ابنه المهدى أن يعسكر فى الجانب الشرق منها . وسمى هذا الجانب (الرصافة) بضم الراء . وقد بنى بها قصراً سمى (قصر الرصافة) . وأقام المهدى فيها جامعاً سمى (جامع الرصافة) وفرغ المهدى من بنائها سنة ١٥٩ هـ

فقال المهدى :

— وكيف ذلك وأنت تأتينا على هذه الحال ؟ !

قال يعقوب :

— إلى متى يعبث هذا الأعمى المكتنى بأبى معاذ[1] وينتهك الحرمات ويقترف الكبائر . ولقد أتى اليوم أكبر الكبائر ، فهجا أمير المؤمنين بما لا ينطق به لسانى ، ولا يتوهمه فكرى . . !

فقال المهدى :

— بحياتى إلا أنشدتنى ما هجانى به . . .

قال يعقوب :

— والله يا أمير المؤمنين لو خيرتنى بين ضرب عنق ، و إنشادى إياه ، ما أنشدته ولاخترت إلا أن تضرب عنقى .!

فقال المهدى :

— لابد من أن تنشدنى ما قاله هذا الأعمى . وقد حلفت عليك أن تفعل .

قال :

— يا أمير المؤمنين . أمّا لفظاً ، فلا ، ولكنى أكتب ذلك .

ثم تناول ورقة وكتب فيها ما قاله بشار فى هجاء المهدى وهو :

خليفـــــــة يزنى بعماته   يلعب بالدبوق[2] والصولجان

---

(١) أبومعاذ لقب بشار بن برد . وقد ولد سنة ١٠٤ هـ وقتل سنة ١٦٧ هـ

(٢) الدبوق لعبة كان يلعب بها الصبيان فى ذلك العصر

أبدلنا الله به غـــــــيره ودسّ موسى فى حرِ الخيزران [1]

فقرأ المهدي هذين البيتين فكاد ينشق غيظاً ، وقال ليعقوب :

— ثم ماذا قال !

فقال :

— كفى يا أمير المؤمنين . وأعفنى . . .

قال المهدى :

— لقد علمت أنه قال شيئاً فى حلقة يونس النحوى ولم يخش بأساً .

فقال يعقوب :

— نعم يامولاى . وقد قال ماحرّض به على الفتنة ، واستنفر به الأمويين من أجداثهم

قال المهدى :

— وكيف ذلك ؟ ؟

فتناول يعقوب ورقة أخرى وكتب فيها بيتين لبشار فى هجاء المهدى وهما :

بنى أميــة هبُّوا طال نومكمو إن الخليفــة يعقوب بن داودِ

ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفــة الله بين النـاى والعودِ

فقال المهدى :

— أو قال ذلك أيضاً . . والله لأحصدن جسده حصداً . . . !

قال يعقوب :

---

(١) الخيزران زوجة المهدى وأم موسى الهادى وهرون الرشيد

— ان هذا المرعَّث[1] الزنديق . هو أعدى أعداء أمير المؤمنين ، وأعدى أعداء أبيه. أولم تعلم يامولاى ماقاله فى أبى جعفر المنصور وتحريضه لابراهيم بن عبدالله العلوى على الخروج عليه وخلعه ومبايعته لنفسه بعد أن قتل أبوك عدو الله أبا مسلم الخراسانى ، فبعث اليه بقصيدته التى مطلعها :

أبا جعفر ما طيب عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم

ولم يخش فى ذلك بأس المنصور ، ولكنه تشيع منه للعلويين ، وكراهية لبنى العباس ، ثم علم يا أمير المؤمنين إن الله أظفر المنصور بعدوه ابراهيم وقتله وبدد شمل أنصاره فخاف أن يظهر أمره ، فغير وبدل فى القصيدة وقال فيها :

« أبا مسلم » ماطيب عيش بدائم ... ولا سالم عما قليل بسالم

فقال (أبا مسلم) بدل (أبا جعفر) . ثم قال .

على الملك الجبار يَقتحم الردى ... ويصرعه فى المأزق المتلاطم

كأنك لم تسمع بقتل متوَّج ... عظيم ، ولم تسمع بفتك الأعاجم

تقسَّم كسرى رهطُه بسيوفهم ... وأمسى أبو العباس أحلام نائم

وقد كان لايخشى انقلاب مكيدة ... عليه ولا جرى النحوس الأشائم

مقيماً على اللذات حتى بدت له ... وجوه المنايا حاسرات العمائم

حتى قال :

(١) المرعث كان لقباً لبشار بن برد لأنه كان يلبس قيصاً جيوبه مسترسلة . والرعث الاسترسال . أو لأنه كان يسترسل فى قوله ويتساقط فى هجائه . وقد كان بشار ضخما طويلا عظيم الوجه مجدوراً جاحظ العينين قد تغشاهما لحم أحمر . وكان خطيبا شاعراً صاحب منظوم ومنثور

محا الله قوماً رأَّسوك عليهمو وما زلتَ مرءوساً خبيث المطاعم
أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحياً عاشقاً للمكارم
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى جهاراً ومن يهديك مثل ابن فاطم

فحذف هذا البيت يا أمير المؤمنين ، وقال بعده :

سراج يعين المستضيء وتارة يكون ظلاماً للعدوّ المزاحم
إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الخوافى قوة للقوادم

ومع أن المنصور عرف نفاقه ، وكشف أمره ، فانه تغاضى عنه ، بل قابل الإساءة بالغفران ، والخطيئة بالإحسان ، فوصله وأعطاه ، وقربه وأكرمه وحمله معه فى الحج ، وخلع عليه جُبَّة هاشمية من خير ملابسه فما كان من هذا الزنديق المستهتر إلا أن فضّل عليها بعض دنانير فباعها فى سوق الكوفة .

فقد سافر أبو جعفر للحج ، وصحب بشاراً معه فيمن صحب من الشعراء وبينما كان الركب سائراً فى وقت الهاجرة جعلت الشمس تضحك بين عينيه فقال أبو جعفر إنى قائل بيتاً ، فمن أجازه وهبت له جبتى هذه ، فقال الشعراء يقول أمير المؤمنين ، فقال :

وهاجرةٍ نصبتُ لها جبينى يقطّع ظهرها ظهر العظاية [1]

فانبرى بشار ، وقال :

---

(١) العظاية دويبة ملساء تعدو وتتردد فى عدوها وهى تشبه سام أبرص

وقفت بها القلوص[1] ففاض دمعى   على خــدّى وأقصرَ واعظايه

فنزع المنصور الجبة وهو راكب ودفعها إليه ، فماذا فعل يا أمير المؤمنين بهذه المنحة الشريفة ؟ ؟

إنه باعها فى السوق باربعمائة دينار استخفافا منه بشأنها ، وشأن المنصور . .

وكان أبو دلامة الشاعر حاضراً ، فنظر إليه المهدى ، وقال له :

— وماذا تقول أبا دلامة ؟

فقال أبو دلامة :

— إن هذا الأعمى قد نال بلسانه كل شريف ، وما رعى لك يا أمير المؤمنين عهداً ولا خاف لك بأساً . ولقد كنتَ نهيته عن النساء ، ولكنه ما انتهى ، بل أكثر وأقذع ، وقال على الرغم من أمير المؤمنين :

يا بن موسى ماذا يقول الإمام   فى فتــاة بالقلب منها أوام

بتُّ من حبهــا أوقر بالكأ   س ويهفو على فؤادى الهيام

ثم إنه قدم عليك وأنشدك قصيدته التى مدح فيها أمير المؤمنين و بدأها بالغزل ، وهو يعلم أنك قد نهيتَه عنه . فلما صادف منك إعراضاً خرج من عند أمير المؤمنين وهو يقول :

— والله لقد مدحته بشعر لو مدح به الدهر لم يخش صرفه على أحد ولكنه كذَّب أملى ، لأنى كذَبت فى قولى .

(١) القلوص الشابة من الإبل الطويلة القوائم

فلما سمع المهدى ذلك اهتاج واشتدت نقمته على بشار

ثم التفت إلى يعقوب بن داود ، وقال :

— هيىء الرحيل إلى البصرة للنظر فى أمرها

وما كان قصده من هذا الرحيل إلا بشار بن برد والانتقام منه حيث يقيم .!

***

كان بشار بن برد من مخضرمى شعراء الدولتين الأموية والعباسية وقد اشتهر فيهما ومدح وهجا ونال أسنى الجوائز. ولد بالبصرة مكفوفاً وأقام بها. وكان أبوه مولى لبنى عقيل فأعتقوه ، ولكن بشاراً كان كثير التلون فى نسبه ودينه وسياسته

دخل على المهدى ، فسأله فيمن تعتد يا بشار ، فقال :

« أما اللسان والزى فعربيان . وأما الأصل فعجمى ، كما قلت فى شعرى :

ونبّئتُ قوماً بهم جنَّـــة ... يقولون من ذا وكنتُ العلمْ

ألا أيها السائلى جاهداً ... ليعرفنى أنا أنف الكرمْ

نمت فى الكرام بنو عامر ... فروعى وأصلى قريش العجمْ

وكان أبو دلامة حاضراً ، فقال : « كلا لوجهك أقبح من ذلك ، ووجهى مع وجهك »

فأجابه بشار يصف نفسه :

« كلا والله ما رأيت رجلا أصدق على نفسه وأكذب على جليسه منك . والله إنى لطويل القامة ، عظيم الهامة ، تام الألواح ، أسجح[1] الخدين ، فهل أنت مثلى[2] يا مرضعان ؟ »

فقال المهدى :

— ومن أى العجم أصلك ؟

قال بشار :

— من أكثرها فى الفرسان ، وأشدها على الأقران من أهل[3] طخارستان

قال المهدى ولكنك انتسبت للعرب فقلت :

إننى من بنى عقيل بن كعب موضع السيف من طلى الأعناق

وكان بشار متحيراً فى الدين كتحيره فى السياسة فكان يدين بالرجعة ويكفر سائر الأمة . ويصوب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين ، فيقول :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منه كانت النار

---

(١) إسجح أى سهل

(٢) المرضعان اللئيم

(٣) مقاطعة فى ايران . وكان أبو بشار من سبي المهلب بن أبى صفرة من هذه المقاطعة

ويفضل إبليس على آدم فيقول :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتدبروا يافتيـــة الأشرار
النار معـــدنه وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وكان أحد ستة من رجال الجدل والكلام ، وهم عمرو بن عبيدة ، وواصل بن عطاء . و بشار بن برد . وصالح بن عبد القدوس، وعبدالكريم ابن أبي العوجاء ، وجرير بن حازم الأزدى . فأما عمرو ، وواصل ، فقد صارا من المعتزلة . وأما صالح وعبد الكريم ، فقد صححا التوبة ، وأما جرير بن حازم ، فصار إلى قول الدهريين ، وأما بشار فبقى متحيراً

***

وكان بشار متشيعاً للفاطميين ضد العباسيين مناصرة لابراهيم بن عبد الله بن الحسن فلما ظفر به أبو جعفر المنصور لحق به ، وبقى ببابه حتى مات ، فأقام بباب خليفته محمد المهدى إلى أن اصطفى يعقوب بن داود وزيراً فوقع بينهما ما أقصاه عنه ، وازال الألفة بينهما .

فقد وفد بشار بن برد على يعقوب بعد وزارته ، وكان يعرفه مذ كان كاتباً لابراهيم بن عبد الله ، فمدحه بقصيدة ، فلم يحفل يعقوب به فصاح بشار به :

« طال الثواء على رسوم المنزلِ »

فرد يعقوب :

« فإذا تشاء أبا معاذ فارحلِ »

فغضب بشار وقال يهجوه :

يعقوب قد ورد العفاة عشية	متعرضين لسيبك المغتاب
فسقيتهم وحسبتنى كمّونة	نبتت لزارعها بغير شراب
مهلاً لديك فإننى ريحانة	فاشمم بأنفك واسقها بذناب

ثم هجاه مرة أخرى ، وهجا الخليفة

فبلغ ذلك يعقوب فدس له عند المهدى . فلما أعطى الشعراء العطايا ولم يعطه ، قال يهجوه :

« خليفة يزنى بعماته . . . . » ! . . .

فغضب المهدى ، وقال ليعقوب : « هىء لنا الرحيل إلى البصرة للنظر فى أمرها » .

وصل المهدى وحاشيته وفيهم يعقوب بن داود إلى البصرة على ظهر سفينة شقت نهر دجلة . فلما رست على البطيحة بالقرب من البصرة سمع المهدى أذاناً فى وقت الضحى ، فقال :

— انظروا ما هذا الأذان ومن هو المؤذن ؟ !

فذهبوا فإذا بشار بن برد سكران، وقد جعل يؤذن للصلاة.فقال المهدى احضروه . فأحضروه إليه بالسفينة ، فقال له :

— يازنديق أتلهو بالأذان فى غير وقت الصلاة وأنت سكران ؟

ثم أمر بضربه بالسياط ، فكان كلما أوجعه الضرب يقول :

— حس[1] . . !

فقال يعقوب :

— انظر يا أمير المؤمنين يقول حس ، ولا يقول بسم الله . .

فقال بشار :

— ويلك . أطعام هو ، فأسمىّ الله عليه . . !

قال يعقوب فى تهكم :

— أفلا تقول الحمد لله . . !

فقال بشار :

— ويلك أو نعمة هى حتى أحمد الله عليها . . !

ثم جعل الجلاد يضربه ضرباً مميتاً حتى بان عليه الموت ، فألقى فى جانب من السفينة فقال وهو يعانى السكرات : ليت عين أبى الشمقمق رأتنى حين قال :

إن بشار بن برد تيس اعمى فى سفينه

ثم لفظ نفسه الأخير ، وطرح فى البطيحة ، فجاء أهله فكفنوه ودفنوه .

وبعث المهدى بعد موته إلى منزله من يفتشه فعثر بصحيفة مكتوب فيها « بسم الله الرحمن الرحيم . إنى أردت هجاء آل سليمان بن على لبخلهم فتذكرت قرابتهم من رسول الله (ص) فأمسكت عنهم إجلالاً له صلى الله عليه وسلم ، على أنى قلت فيهم :

(١) كلمه تقال للشىء إذا أوجع الجسد

دينار آل سليمان ودرهمهم كالبابليين حُفّا بالعفاريتِ
لا يُبصران ولا يُرجى لقاؤهما كما سمعت بهاروت وماروتِ

وإنى أستغفر الله !..

* * *

شاء الله أن ينتقم لبشار من يعقوب بعد موته ، فقد كان يعقوب على الرغم من خدمته للمهدى ، ومشايعته له يخفى تشيعاً للعلويين ، فنُمى به إلى المهدى ، فشك فيه ، وأخذ الشك يزداد عنده ، فأراد أن يمتحن ميله إليهم ، فدعا به ذات يوم فدخل يعقوب على المهدى وهو فى مجلس مفروش بفرش مورّد متناه فى الحسن وجمال المنظر ، وعليه ثياب مورّدة وعلى رأسه جارية ليس أحسن منها ، وهو بجانب بستان فيه شجر قد أزهر فقال المهدى :

— يا يعقوب كيف ترى مجلسنا هذا ؟

قال :

— على غاية الحسن ، فمتع الله أمير المؤمنين به ، وهناه .

فقال المهدى :

— جميع ما فيه لك يا يعقوب . وهذه الجارية لك ليتم سرورك . وقد أمرت لك بمائة ألف درهم تفرقها فى بعض شأنك .

فدعا يعقوب الله أن يبقى أمير المؤمنين ، فقال المهدى :

— ولكن لى إليك حاجة ...

فتوجس يعقوب ، وقال :

— يا أمير المؤمنين . إنى أستعيذ الله من سخطك .

فقال المهدى :

— لا . ولكنى أحب أن تضمن لى قضاء حاجة .

قال :

— السمع والطاعة . . .

فقال المهدى :

— والله ثلاثاً . . .

قال يعقوب :

— والله ثلاثاً . . .

فقال المهدى :

— ضع يدك على رأسى واحلف به .

ففعل ذلك ، فلما استوثق منه قال له :

— هذا فلان بن فلان رجل من العلويين أحبُّ أن تكفينى مؤنته ، وتريحني بقتله ، فخذه إليك ، وافعل ما أمرتك .

اقتاد يعقوب الرجل العلوى ، وحمل المال والمتاع ، و بعث إليه المهدى بالجارية فاصطفاها لنفسه .

ولما وصل إلى المنزل دعا العلوى ، لينفذ فيه أمر أمير المؤمنين فقال له الرجل :

— ويحك يا يعقوب تلقى الله بدمى ، وأنا رجل من ولد فاطمة رضى الله عنها بنت محمد (ص) . .

فقال له :

— ياهذا . فيك خير ؟

قال الرجل :

— ان فعلت لى خيراً شكرتك ، ودعوت لك .

فقال يعقوب :

— خذ هذا المال ، وخذ أى طريق شئت .

وكانت الجارية التى أهداها المهدى واقفة بحيث لا يريانها ، فسمعت الكلام كله فوجهت به إلى المهدى مع بعض خدمه ، فأرسل من ظفر بالعلوى وبالمال فى الطريق . ثم دعا يعقوب ، فحضر ، فقال له :

— ما حال صاحبك العلوى ؟

فأجاب يعقوب :

— قد أراح الله أمير المؤمنين منه . . . !

قال المهدى :

— مات ؟ ؟

قال يعقوب :

— نعم يا أمير المؤمنين ؟

فقال المهدى :

— والله ثلاثاً . . .

قال يعقوب :

— والله ثلاثاً . . .

فقال المهدى :

— ضع يدك على رأسى واحلف .

فوضع يعقوب يده على رأسه ، وحلف به . فالتفت المهدى وصاح :

— ياغلام اخرج إلينا مَنْ فى هذه الغرفة ؟

فأخرج العلوىّ والمال . فأسقط فى يد يعقوب ، فقال له المهدى :

— لقد حل لى والله دمك . ولو أردت إراقته لأرقته . . يا منافق . ألم أرفع من ذكرك وأنت خامل ، وأعلى من قدرك وأنت غافل ، وألبسك من نعم الله ما لم أجد لك بحمله يدين من الشكر . والله لألبسنك من الموت قميصاً لا يخلق الدهر جديده . . يا غلام إلى سجن المطبق[1] » !

فأخذوا يعقوب إلى هذا السجن المشهور فأدلوه فى بئر عميق لا يرى فيها نوراً فبقى فيها مدة طويلة حتى مضى من عهد الرشيد خمس سنين وشهرين . وذات يوم دعا به الرشيد ، فذهب إلى حيث لا يعلم وقد كف بصره ثم قيل له : « سلم على أمير المؤمنين » فسلم ، فقال له الرشيد :

— أى أمير المؤمنين أنا ؟

فقال يعقوب : — المهدى .

قال الرشيد :

(١) المطبق بضم الميم وسكون الطاء وكسر الباء السجن تحت الأرض

— رحم الله المهدى .

فقال يعقوب : — فالهـادى .

قال : — رحم الله الهـادى :

فقال يعقوب : — فالرشيد . . .

قال الرشيد : — نعم .

فقال يعقوب : « ما أشك فى وقوف أمير المؤمنين على خبرى وعلتى وما تناهت إليه حالى » . قال الرشيد : « نعم ، كل ذلك عندى ، فسل حاجتك » فقال : « المقام بمكة » . قال : « نفعل ذلك ، فهل غير هذا ؟ » فقال : « ما بقى فىّ مستمتع لشىء » . قال الرشيد : « فاذهب إلى حيث تريد » . فذهب إلى مكة وأقام بها إلى أن مات . . !



الخيزران

السياسة تفسد الأخلاق حتى أخلاق الآباء والأمهات . فهذه الخيزران أم الخليفة موسى الهادى كانت ولوعة بالسياسة وحب السيطرة والنفوذ ، فلما وقف ابنها الهادى فى سبيلها لم تتردد فى التضحية به ، ودبرت مؤامرة قتله ، وهى قصة جديرة بأن تسمى « غدر أم » !

وأرِقَ الخليفة موسى الهادى ذات ليلة ، واشتد به الأرق ، وتقاسمته الهموم . وهاج له فى ظلام الليل ما يجرى حوله من تسلُّط والدته « الخيزران »[1] على شؤونه ، وتدخلها فى أمور دولته ، وسعيها فى تقوية نفوذ قومها الفُرس ومعارضتها له فى خلع أخيه هرون الرشيد من ولاية عهده .. فدعا بجاريته « أمة العزيز » وأمرها أن ترسل فى طلب جليسه وأنيسه « عيسى بن دأب » . وكان عربياً صميماً من أهل الحجاز ، ومن أكثر رجال عصره علماً وأدباً ورواية ، فدخل عليه عيسى وهو فى بيت

(١) بويع للخليفة موسى الهادى سنة ١٦٩ هـ وقتل سنة ١٧٠ هـ . وكانت والدته الخيزران من جوارى المهدى . فتزوجها وماتت سنة ١٧٣ . وكانت تكره الوزير العربى « الربيع بن يواس » ، وقد أبت على هرون الرشيد تعيين ابنه الفضل بن الربيع خلفا له . وقد استعان بها البرامكة فى أوائل عهد الرشيد .

شتوى صغير ، وأمامه كتاب يقرؤه ، فرفع رأسه إليه ، ثم قال :

— يا عيسى . .

— لبيك يا أمير المؤمنين .

قال الهادى :

— أرقت الليلة ، واشتملت علىّ الخواطر ، فحدثْنى من أخبار الناس عساك تدفع عن نفسى بعض ما تجد .

فأخذ عيسى بن دأب يحدث الخليفة ، ويروى له بعض السير والأخبار ثم اجتاز بهما الحديث إلى أخبار مصر وفضائلها ومساوئها ، فقال الهادى :

— إن فضائل مصر يا بن دأب أكثر من مساوئها . . . ؟

فقال ابن دأب :

— هذه يا أمير المؤمنين دعوى المصريين بغير برهان . وأهل العراق يأبون هذه الدعوى ويذكرون أن عيوبها أكثر من محاسنها . ؟

— مثل ماذا ؟ . .

— إن من عيوب مصر أنها لا تمطر كثيراً . وإذا أمطرت كره المصريون مطرها . وابتهلوا إلى الله بالدعاء أن يرفعه عنهم . وقد قال الله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته » فهذه رحمة مجللة لهؤلاء القوم ، وهم لها كارهون ، وهى ضارة لهم غير موافقة ، لا يزكو بها زرعهم . ولا تخصب بها أرضهم .

— ثم ماذا ؟

— ثم من عيوبها الريح المريسية ، وهى الجنوبية ، وذلك أن أهل مصر يسمون أعالى الصعيد إلى بلاد النوبة « مريس » فإذا هبت الريح المريسية ثلاثة عشر يوماً اشتروا الأكفان والحنوط ، وأيقنوا بالوباء القابل والبلاء الشامل :

— ثم ماذا يا بن دأب ؟

— ثم من عيوبها اختلاف جوها ، فالمصريون يغيرون ملابسهم فى اليوم الواحد مراراً فيلبسون القميص مرة ، والمبطنات مرة . والحشو مرة أخرى . ذلك لتباين مهاب الرياح فيها ليلا ونهاراً فى سائر الفصول .

أما نيلها ، فكفى ما عليه من الخلاف لجميع الأنهار ، وليس بالفرات ولا الدجلة ولا بأنهار بلخ وسيحان وجيحان شىء من التماسيح . وهى فى النيل ضارة بلا منفعة ، ومفسدة غير مصلحة .

قال الهادى :

— ويحك يا بن دأب .. كنت مشغوفاً بزيارة مصر لأروح فيها نفسى ، وأخفف عنها بعض ما تجد من غم واكتئاب فزهدتنى بوصفك لها ، فدع عنك ذكرها ، وأخبرنى ما ترى فى أمر هؤلاء القواد الذين يترددون على أمى ، يؤملون بكلامها عندى قضاء حاجاتهم ، وإجابة أطماعهم .

— لقد مددت يا أمير المؤمنين فى برك بأمك ، وطاعتك لها وسماعك لقولها حتى صار لها عندك ما كان لها عند أبيك المهدى ، من الاستبداد به والسيطرة عليه ، والتدخل فى شؤون ملكه ، فالرأى أن

تجمع هؤلاء القواد الذين يقصدونها فيما يريدون ، وتأمرهم ألا يقربوا بابها .

— أصبت ، وسآمرها كذلك ألا تستقبل أحداً منهم . فما للنساء والكلام فى أمور الرجال .. ! !

* * *

انصرف ابن دأب إلى داره ، وانصرم الليل فى بطء عن الهادى ، وأقبل الصباح واستوى الخليفة على سرير الخلافة وإلى جانبه وزيره الربيع بن يونس ، وكاتبه عبيد بن زياد ، فدعا بالقواد الذين يترددون على باب الخيزران ، فلما وقفوا بين يديه ، قال لهم :

— أيّما خير : أنا ، أم أنتم ؟

— فقالوا :

— بل أنت يا أمير المؤمنين .

— فأيّما خير : أمى ، أم أمهاتكم ؟

— بل أمك يا أمير المؤمنين .

— فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولون ، فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ، وقالت أم فلان .

— ما أحد منا يحب ذلك يا أمير المؤمنين .

— إذن ، فما بالكم تقصدون أمى ، فتتحدثون معها ، وتتوسلون بها ، وتسعون إليها لقضاء حاجاتكم عندى .

فسكت القواد ، وأسقط فى أيديهم ، وانقطعوا عن باب الخيزران .

علمت الخيزران بما حدث ، فشقّ عليها ذلك ، وكانت قد وعدت أحدهم بقضاء حاجة له عند الهادى ، فذهبت إليه ذات يوم ، وسألته قضاءها ، فاعتلّ عليها بعلة فقالت له :

— لا بد من إجابتى . !

— لا أفعل . . !

— إنى ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك أحد قوادك .

— ويل لابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها . والله لأقضيتها له . .

— إذن والله لا أسألك حاجة أبداً .

— إذن والله لا أبالى . . !

فقامت مغضبة ، فعاجلها الهادى بقوله :

— مكانك ، فاستوعبى كلامى ، والله ، وإلا نُفيت من قرابتى من رسول الله (ص) لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى ، أو من خاصتى ، أو من خدمى ، لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء ، فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو كل يوم إلى بابك . أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكّرك ، إياك إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم أو ذمى . . !

سمعت الخيزران ذلك من ولدها الهادى ، فاكتأبت وقامت منصرفة لا تعقل ما تطأ ودخلت قصرها فى وجوم ، وآوت إلى غرفتها وانطرحت على سريرها ثم أجهشت بالبكاء ، فأسرعت إليها جاريتها « عتبة » وسألتها

عما بها ، فأفضت إليها بما حدث ، ثم قالت لها : « ادع لي خالصة » وكانت خالصة من أدنى جواريها وأشدهن حبًّا لها ، فأسرّت إليهما بكلام خطير . . . !

و إنهن لكذلك و إذا بالهادى يدخل على أمه ملاطفاً لها ، مسترضياً نفسها ، معتذراً إليها عما حدث ، وهو يقول :

— إنى أريد لك يا أمى ألا تخرجى من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فليس من قدرك أن تنزلي لقضاء حاجات الرجال . .

فأعرضت عنه ومكثت ساعة شعر فيها الهادى بما تضمره له والدته من حقد ونقمة وغدر ، ثم قالت له :

— لقد أمرت ألا أتحدث إليك فى شؤون الرجال ، وألا أتدخل فى أمور دولتك ، فهلاّ تريد أن أتحدث معك أيضاً فى شأن أخيك هرون ، لأردّك عن غيك ، وأنبهك إلى سوء ما تفعل إن خلعته من ولاية العهد ؟!

فنهض الهادى مغضباً ، وقال بصوت مرتفع :

— ما للنساء والاعتراض فى أمر الملك ، عليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك يا أماه ، ولك بعد ذلك طاعة فيا يجب لك .

وانصرف غير مبال بها ، ولا سامع لقولها . و بعد أيام جاء إلى الخيزران رسول من الهادى يحمل « أرزّة » وهو يقول :

— يقول أمير المؤمنين استطبت هذه الأرزّة ، فأكلت منها ! فكلى منها فأخذتها « خالصة » منه ودخلت على مولاتها ، فقالت لها :

— هذه أرزة بعث بها أمير المؤمنين ، وإنى أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه . والرأى أن نأتى بكلب يأكل منها أولا .

وأحضرت خالصة كلباً ، وأطعمته منها ، فما مضت برهة طويلة حتى سقط جثة هامدة ، فقالت الخيزران فى غيظ وحقد :

— ويله أراد أن يقتلنى .. متى أستريح من هذا القاسى القلب ، الشرس الأخلاق ، إنى لأرجو أن يأتى يومه ، وأرى أخاه الرشيد يملأ الدنيا نوراً وسروراً .

وعاد الرسول ، فأخبر الهادى بما حدث ، فقال الهادى :

— لقد كنت أرجو أن تأكل من تلك الأرزة . ولو أكلت منها لاسترحت . . متى أفلح ملك أمُّه الخيزران . . . ! !

***

كانت الخيزران تتشيع لقومها الفرس وكانت تحب ولدها الثانى هرون الرشيد ، وتؤثره على الهادى لكرم نفسه وعظيم طاعته لها ، وأدبه معها وتأديبه الفارسى أيضاً . وكان زوجها المهدى قد أقامه ولياً للعهد بعد أخيه ، وجعل على تربيته يحيى بن خالد البرمكى ، فأراد الهادى بعد وفاة أبيه أن يخلع أخاه ، ويقيم ولده الأكبر جعفراً ولياً للعهد من بعده ، وتابعه فى ذلك القواد العرب ، ودسوا إلى بعض الشيعة ، فتكلموا فى أمر الرشيد وتنقَّصوه فى المجالس العامة ، وقالوا لا نرضى به ولياً للعهد ، وأمر الهادى ألا يسار أمامه بحربة كعادة أولياء العهد فى الدولة ، فانفضَّ

الناس من حوله ، واجتنبوه ، فلم يكن أحد يجترىء أن يسلم عليه أو يقترب منه غير يحيي وأولاده البرامكة .

وغضب الهادى على يحيي ، واتهمه بأنه يفسد أخاه عليه ، ويحرّضه على التشبث بولاية العهد ، فبعث فى طلبه ، فلما حضر إليه ، قال له الهادى :

— يا يحيي . . مالى ومالك . . .

فأجاب يحيي :

— أنا عبدك يا أمير المؤمنين ، فما يكون بين العبد ومولاه إلا طاعته

— فلمَ تدخل بينى و بين أخى هرون وتفسده علىّ . ؟ !

— من أنا يا مولاى حتى أفسد بينك و بين أخيك . إنما أقامنى المهدى على تربيته وصيّرنى فى خدمته ، فقمت بما أمرنى به ، ثم أمرتني أنت بذلك ، فانتهيت إلى أمرك ، وعملت برأيك .

— ولكنى علمت أن أخى هرون يريد التنازل عن ولاية العهد لابنى وأنت ترده عن ذلك .

— يا أمير المؤمنين ، إنك أن حملت الناس على نكث الإيمان ، هانت عليهم أيمانهم وأن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته . وأصون للخلافة فى أولادك وأولاد أبيك

— صدقت . . . ونصحت . . .ولى فى ذلك تدبير .

ثم أذن له فى الانصراف ، فانصرف ، لكن وزير الهادى «الربيع بن

يونس » و بعض القواد العرب الذين كانوا يحسدون يحيي ، و يخشون نفوذ الفرس العظيم فى بلاط الخليفة أخذوا يوغرون صدره ، و يردونه عن رأيه الأخير .

وعلم يحيي بما يدبر له وللرشيد ، فنصحه فى الإستئذان للخروج للصيد فيغيب عن بصر الخليفة ، و يدافع بهذه الغيبة الأيام . فأذن له الهادى فى الخروج وتغيب أر بعين يوماً ، فأنكر غيبته ، و بعث إليه فى العودة ، فجعل يتعلل و يعتذر ، فغضب الهادى ، و بسط مواليه فى المجالس يشتمون الرشيد ، وخروجه على أمر الخليفة ، وتحريض يحيي أياه على مخالفة أخيه ، وخافت الخيرزان على هرون ، فبعثت جاريتها إلى يحيي بن خالد ، تقول :

— الله . الله فى ابنى . لا تقتله ، ودعه يجيب أخاه إلى ما يريد ، فبقاؤه أحبُّ إلى من الدنيا وما فيها

فصاح يحيي فى الجارية :

— ما أنت وهذا . بلّغى مولاتك إنْ يكن الأمر كما تقول ، فإنى وولدى وأهلى سنقتل قبله ، فان اتهمتُ عليه ، فلست بمتهم على نفسى وعليهم . . !

فرجعت الجارية وأخبرت مولاتها بما قال يحيي بن خالد ، فتمتمت بعبارات غير مفهومة ، ودعت جاريتها « خالصة » وسألتها عما فعلت مع « أمة العزيز » جارية الهادى فأنبأتها أنها وافقت على ما تريد ، وقد سرّت

سروراً كبيراً بهذا الوعد الجميل الذى وعدته أياها ، وهو زواجها بهرون الرشيد إذا نجحت المؤامرة .

***

عاد الرشيد من الصيد ، وكان الهادى قد اعتلّت صحته فى ذلك الحين وانقطع عن الناس ، فلما علم بحضور يحيى أمر بحبسه حتى يرى فيه رأيه بعد شفائه ، فأدخل الحبس فى ليلة ظلماء ، و بعثت الخيزران فى تلك الليلة إلى « أمة العزيز » بعض جواريها وكانت قد دبرت كل شىء فدخلن على الهادى فى منتصف الليل وهو على سريره مستغرقاً فى نومه ، فوضعن الوسائد على وجهه حتى قضى مختنقاً ..!

خرج الجوارى فى صمت وسكون ، فلم يشعر بهن أحد ، إذ كانت أمة العزيز قد أحكمت كل شىء واحتاطت لكل شىء ، و بعد ساعة من خروجهن صاحت « وامولاه . . . واخليفتاه . . » فهرع الناس على صوتها وهى تصرخ مات الهادى مات أمير المؤمنين . . !

وجاءت « خالصة » إلى الخيزران ، فقالت لها :

— مات ياسيدتى موسى الهادى . . .

فقالت فى جَلدٍ عجيب :

— ان كان موسى قد مات ، فقد بقى هرون . . هات لى سويقاً ، واسقنى ، واسق الجوارى ، ووزعى الأموال عليهن .

ففعلت ما أمرت ، ثم بعثت الخيزران إلى يحيى بن خالد فى حبسه تقول:

« يا يحيي أن الرجل قد مات ، ونحن نساء ، فادخل إليه ؛ وأصلح من أمره » فدخل يحيي على الهادى ، وهو على سرير موته ، فأصلح من أمره ، وانطلق إلى هرون ، فلما وصل إلى قصر الخلد حيث كان يقيم تلقاه خادم ، فأنبأه أن « مراجل » زوجة هرون الفارسية قد ولدت غلاماً ، فأتى الرشيد مسرعاً ، وقال له : .

— لتهنْك الخلافة ، وليهنْك غلام من مراجل . . !

فسرّ الرشيد بهذه البشرى ، وكان هذا الغلام عبد الله المأمون ، وكانت ليلة مات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ، وولد فيها خليفة . . ودعا يحيي بن خالد كاتبه وأمره أن يكتب إلى ولاة الدولة وعمالها بخلافة الرشيد .

واستتب للرشيد الأمر ، وتزوج أمة العزيز ، فكان له منها ولده « على » ومضى عهد طوته بغدرها جارية ، وظهر عهد أنشأته بيدها جارية ! .



الزاهـــد

هو أبو العتاهية ، عاش فى عهود سبعة خلفاء . كانت حياته ألواناً من الأمل واليأس والحب والزهد ، والسياسة والاجتماع . وفى هذه القصة تصوير له ولعصره فى هذه النواحى

وأقبل أبو العَتاهية شاعر الرشيد[1] على مُخارق[2] المغنى ، وهو جالس فى منزله ببغداد يجرّب لحناً جديداً صنعه ليغنيه أمام الخليفة ، وكان صديقاً حميماً لأبى العتاهية . فقال له :

— قد عزمت على أن اتزود منك يوماً تهبه لى ، فمتى تنشط ؟

قال مخارق :

— متى شئت . . .

فقال أبو العتاهية :

— أخاف أن تقطع بى فلا تحضر . !

(١) أبو العتاهية هو اسماعيل بن القاسم . وكنى بهذه الكنية لطوله أو لتعتهه بجارية المهدى . وقد ولد ببلدة عين التمر بالقرب من الكوفة سنة ١٣٠ هـ وتوفى سنة ٢١٣ تقريباً . وأطلقنا عليه لقب شاعر الرشيد . لأنه كان أكثر الشعراء ملازمة له فى السفر والحضر قبل الخلافه وبعدها

(٢) هو أحد كبار المغنين فى ذلك العصر ، وكان يدين بالتلمذة لإبراهيم الموصلى وكنيته (أبو المهنأ)

قال مخارق :

— والله لا فعلت أبداً و إن طلبنى الخليفة . !

فقال أبو العتاهية :

— يكون ذلك فى غد إن شاء الله .

قال مخارق :

— افعل إن شاء الله .

فوعده مخارق ، وكان الغد ، فذهب إلى منزل أبى العتاهية فرآه جالساً فى مكان نظيف وعلى فراش جميل . وبين يديه جواريه الحسان ، وعبيده السودان ، وقد دعا بمائدة عليها خبز سميذ من الدقيق الأبيض ، وخل وبقل وجدى مشوى . فأكلا منه ما شاءا ، ثم دعا بسمك مشوى ، فأصابا منه جانباً ، ثم دعا بحلواء فتناولا منها قدراً . وجاءت الجارية بفاكهة وريحان ، وألوان من الأنبذة . فقال ابو العتاهية [1] لمخارق :

— اختر لنفسك ما يصلح منها

فاختار مخارق وشرب . ثم صب أبو العتاهية قدحاً ، وقال غنى فى قولى :

أحمدُ قال لى ولم يدرِ مابى ... أتحب الغداة عتبة حقا

فتنفست ثم قلت نعم حبّاً ... جرى فى العروق عرقاً فعرقا

قدْ لعمرى مل الطبيب ومل الأهـ ... ـل منى مما أقاسى وألقى

(١) كان أبو العتاهية طويلا أبيض اللون ، حسن الهيئة أسود الشعر ، وله وفرة جعدة وكانت له لباقة وحصافة . وكان يتجر بالجرار هو وأخوه

فغناه مخارق ، فشرب قدحاً وهو يبكى أحرّ بكاء . ثم قال أبو العتاهية غنى قولى :

ليس لمن ليست له حيلة   موجودة خير من الصبر
فاخط مع الدهر إذا ماخطا   واجر مع الدهر كما يجرى
من سابق الدهر كبا كبوة   لم يستقلها آخر العمــــر

فغناه وهو يبكى وينشج ، ثم شرب قدحاً آخر ، وقال غنى فديتك فى قولى :

خليــلى مالى لا تزال مضرتى   تكون على الأقدار حتماً من الحتم
يصاب فؤادى حين أرمى ورميتى   تعود إلى نحرى فيسلم من أرمى
صبرت ولا والله ما بى جلادة   على الصبر لكنى صبرت على رغمى

فغناه إياه . وشرب أبو العتاهية ثم قال لمخارق غنى فى قولى :

لهفى على ورق الشبابِ   وغصونه الخضر الرطابِ
ذهب الشباب وبان عــــنى غـير منتظر الإيابِ
فلأبكين على الشبـا   ب وطيب أيام العتابِ
إنى لآمل أن أخـــلّد والمنيــة فى طلابى

فغناه مخارق ، وما زال يقترح عليه كل صوت غنى به فى شعره ، فيغنيه إياه ويشرب ويبكى حتى المساء . ثم همّ مخارق بالخروج ، فاستمهله أبو العتاهية قائلا : « أحب أن تصير حتى ترى ما أصنع »

فجلس مخارق ، وأمر أبو العتاهية ابنه محمداً وغلمانه فكسروا كل ما

كان فى المجلس من أوانى النبيذ وأدواته وآلات الطرب حتى لم يبق شيء ثم نزع ثيابه واغتسل ولبس ثياباً بيضاً من الصوف . ثم عانق مخارقا وبكى وقال له :

— السلام عليك ياصديقى ، سلام الفراق الذى لالقاء بعده . وهذا آخر عهدى بك وبالناس . . .

فظن مخارق أنها بعض حماقات أبى العتاهية الماجن وانصرف عنه . وبعد مدة عاوده مخارق فى منزله فرآه قد أخذ قوصرّتين[1] ، وثقب أحدهما وأدخل رأسه ويديه فيها وأقامها مقام القميص ، وثقب الأخرى وأخرج رجليه منها ، وأقامها مقام السراويل .

فلما رآه على هذه الحال دهش وضحك ضحكا شديداً ، فقال له أبو العتاهية:

— من أى شيء تضحك يا أخى ؟ . . .

قال مخارق :

— أسخن الله عينك . . أى شيء هذا ؟ !

فقال أبو العتاهية :

— هذا تصوّف وزهد فى الدنيا . ! .

قال مخارق :

— ومن أبلغك أن هذا تصوّف أو أن أحداً من الأنبياء والزهاد والمجانين ، فعل مثل هذا ؟

---

(١) القوصرة بتشديد الراء وعاء يحفظ فيه التمر .

فقال أبو العتاهية : دعنى يا مخارق دعنى :

ألا إنما التقوى هى العز والكرمْ   وحبك للدنيا هو الفقر والعدمْ
وليس على عبــد تقى نقيصة   إذا صحح التقوى و إن حاك أو حجمْ

قال مخارق :

— أنت الآن فى هيئة المجانين . وما للتقوى والجنون . أنزع عنك هذا يا سخين العين . . !

فاستحيا أبو العتاهية من صديقه . ونزع القوصرّتين ، وجلس معه يتحدث فى ماضية وحاضره ، وفى الحياة والموت ، وفى الزهد فى الدنيا حتى أفرط ، فقال له مخارق :

— أفرطت والله . وأنى لأ راك مع حديثك عن الزهد لتحرص على الدنيا حرص الشحيح . !

وهنا دخل عليهما ثمامة بن أشرس ، فقال أبو العتاهية :

— هيه ياثمامة . .

قال ثمامة :

— ماذا عندك من الشعر اليوم ؟

قال أبو العتاهية عندى :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه   تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق   وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى   يحق و إلا استهلكته هوالكه

فقال ثمامة : « ومن أين قضيت بهذا ؟ » فقال : « من قول رسول الله صلى الله وسلم أنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت » فقال ثمامة :

— أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟

قال أبو العتاهية : « نعم » قال ثمامة ! « فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك ، ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ، ولا تقدمها ذخراً لآخرتك ؟ »

فقال أبو العتاهية : « يا ثمامة والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس » .

قال ثمامة : « ولمَ تزيد حال من افتقر على حالك ، وأنت دائم الحرص دائم الجمع ، شحيح على نفسك ولا تنفق مما رزقك الله »

فقال أبو العتاهية :

— لو كان رزقى لأنفقته . . !

* * *

كان أبو العتاهية فى أول حياته مخنثاً متعتهاً ، وكانت حياته حياة مجون ولهو وطرب ، كما كان شعره لا يعدو الغزل والتشبيب ومدح الخلفاء والأمراء وهجو خصومهم وخصومه . وقد أثرت فى حياته « عتبة » جارية المهدى فأحبها ، وأولع بحبها ، ولكنه صدم فى هذا الحب صدمة أضاعت

أمله ، وكان لها ما بعدها من اليأس والقنوط والانصراف عن متاع الدنيا ، واعتزال الناس ، والإقبال على الزهد والتصوف .

وكانت « عتبة » حينما فتن بها أبو العتاهية جارية لريطة ابنة أبي العباس قبل أن تكون جارية للمهدى ولزوجته الخيزران . وذات يوم أرسلتها ريطة إلى عبد الله[1] بن مالك ليشترى لها رقيقاً . فبينما هى جالسة عنده جاء أبو العتاهية فى زى شيخ متنسك . فقال لها :

— جعلنى الله فداك شيخ ضعيف كبير لا يقوى على الخدمة ، فإن رأيت أعزك الله شرائى وعتقى ، فعلت مأجورة . . !

فقالت عتبه لعبد الله :

— اشتره وأعتقه .

فقال أبو العتاهية :

— أتأذنين لى أصلحك الله أن أشكرك ، وأقبل يدك .

فأذنت له بتقبيل يدها ، فقبلها . وانصرف ، فضحك عبد الله ، وقال لها :

« أتدرين من هذا ؟ » قالت : « لا » قال : « أبو العتاهية . وإنما احتال عليك حتى قبل يدك » . !

فذهبت عتبة تشكو إلى مولاتها ريطة، ثم انتقلت إلى خدمة المهدى فلم ينصرف أبو العتاهية عن حبها والتشبيب بها ، فشكت أمرها إلى

---

(١) هو صاحب الشرطة فى أيام المهدى ، والهادى ، والرشيد

زوجته الخيزران وما يلحقها من التشهير بها ، وأخذت تبكى فدخل المهدى وهى على هذه الحال فسألها عن حالها ، فأخبرته الخيزران ، فذهب المهدى وأحضر أبا العتاهية وقال له :

— ما لك وما لعتبة تشهّر بها ، وتقول فيها :

الله بينى وبين مـولاتى   أبدت لى الصدّ والملاماتِ

« فمتى وصلتك حتى تشكو صدها عنك ؟ » فقال أبو العتاهية : يا أمير المؤمنين أنا الذى أقول :

يا ناقُ خُبّى بنا ولا تَعِدى   نفسك فيما ترين راحاتِ

حتى تجيئى بنا إلى ملك   توجـه الله بالمهـاباتِ

يقول للريح كلـما عصفت   هل لك ياريح فى مباراتى

فلما سمع المهدى ذلك نكس رأسه ، ونكث بالقضيب الأرض ، وقال ولكنك أنت القائل :

ألا ما لسيدتى مالهـا   أدَلاًّ ، فأحمـل إدلالهـا

وجارية من جوار الإمامِ   قد أُسكن الحبُّ سربالها

فقال : يا أمير المؤمنين وأنا القائل :

أتته الخـلافة منقادة   إليه تجـرر أذيالهـا

ولم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحـد غـيره   لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه[1] بنات القلو   ب لما قبل الله أعمالها

---

(١) بنات القلوب النيات

وأن الخليفة من بُغض لا إليه ليُبغضُ من قالها

فسكت المهدى ، ثم قال . وأنت القائل :

بالله يا حلوة العينين زوريني قبل الممات وإلا فاستزيريني
هذان أمران فاختارى أحبهما إليك أولا فداعى الموت يدعونى
يا عُتبَ ما أنت إلا بدعة خلقت من غير طين وخَلق الناس من طين
أنى لأعجب من حب يقربنى ممن يباعدنى عنه ويقصينى

ثم سأله عن أشياء فافحم أبو العتاهية ، فأمر المهدىُ بجلده ، فجلد وأخرج مجلوداً ، فلقيته عتبة ، وهو على هذه الحال ، فقال لها :

بخٍ بخٍ يا عُتبَ من مثلكم قد قتل المهدى فيكم قتيلا

فبكت عتبة وفاض دمعها ودخلت على الخيزران تبكى ، فرآها المهدى ، فقال :

— ما لعتبة تبكى ؟ . . .

فقالت رأت أبا العتاهية مجلوداً ، وقال لها كيت وكيت . فأمر له بجائزة من المال ، ففرقها أبو العتاهية على الباب ، فعلم المهدى ، فقال له :

— ما حملك على أن أكرمتك بكرامة ، ففرقتها ؟

فأجاب :

— ما كنت لآكل ثمن من أحببت . . !

فوجه إليه المهدى بجائزة أخرى ، وحلف عليه ألا يفرقها ، فأخذها وبعث إلى المهدى يقول :

نفسى بشىء من الدنيا معلقة   الله والقـائم المهـدى يكفيهـا
إنى لأيأس منها ثم يطمعنى   فيها احتقارُك للدنيا وما فيها

فلما قرأ البيتين همّ أن يدفع إليه « عتبة » فدخلت عليه وقالت :

ـ . يا أمير المؤمنين . مع حُرمتى وخدمتى تدفعنى إلى بائع جـرار يكتسب بالشعر » ! . . فبعث المهدى إليه يقول :

ـ أما عتبة فلا سبيل لك إليها . وقد أمرنا لك بملء «البرنية» مالا .

فلم يعاوده وكانت صدمة . ولـكن قلبه بقى مضطرباً حيناً من الزمان ، ثم أسلم نفسه للزهد والتصوف

***

مضى عهد المهدى ، ثم مضى من بعده عهد موسى الهادى . ثم جاء عهد هرون الرشيد وكان أبو العتاهية يلازم هرون قبل الخلافة فى السفر والحضر وكان شاعره الأول فسأل عنه ، فقيل له اعتكف عن الناس ، وجاء مخارق المغنى فحدّث الرشيدى بحديث القوصرتين ، وما رآه من أبى العتاهية فأمر الرشيد باستدعائه ، فحضر ، فقال له :

ـ مالك يا اسماعيل تلبس ملابس الزهاد ، وتنصرف عن الناس ؟

فقال أبو العتاهية :

ـ إنى تركت الدنيا لأنه لا خير فيها ، وأقبلت على الآخرة لأنها خير وأبقى .

قال الرشيد :

ـ وهل تركت الشعر أيضاً ؟

فقال أبو العتاهية :

— إلا ما يعظ ويفكر بالموت .

قال الرشيد :

— ولكنى أريد أن تقول الغزل .

فامتنع أبو العتاهية . فغضب الرشيد وصاح برجاله :

— أحبسوه فى المطبق .

فحبسوه فى مكان ضيق من هذا السجن ، فصاح أبو العتاهية : « الموت . . الموت . . أخرجونى . فأنا أقول كل ما شئتم » فقالوا له : « قل » فقال : « حتى أتنفس » فأخرجوه وأعطوه قلماً وقرطاساً ودواة ، فقال أبياته التى أولها :

من لعبد أذله مولاه ما له شافع إليه سواه
يشتكى ما به إليه ويخشاه ويرجوه مثل ما يخشاه

ودفع بهذه الأبيات إلى الرشيد ، وقال : « هذه ولا أقول بعدها » . فأمر الرشيد بإعادته إلى السجن إلا أن يقول الغزل مما يصلح للغناء واللهو ، فأعيد إلى « المطبق » وأغلق الباب عليه . وإذا هو يتبين فى الظلام رجلاً جالساً فى القيد ، فنظر إليه أبو العتاهيه ساعة ، ثم سمع الرجل يقول :

تعودت مُرَّ الصبر حتى ألفته وأسلمنى حسنُ العزاء إلى الصبر
وصيرنى يأسى من الناس راجياً لحسن صنيع الله من حيث لا أدرى

فقال له أبو العتاهية :

— أعد يرحمك الله هذين البيتين .

قال الرجل :

— ويلك أبا العتاهية ، ما أسوأ أدبك ، وأقل عقلك . دخلت عليّ السجن ، فما سلمت تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألت سؤال الحر للحر ، ولا توجعت توجع المبتلى للمبتلى ، حتى سمعت بيتين من الشعر — الذى لا فضل فيك غيره — فلم تصبر على استعادتهما . ؟ !

فقال أبو العتاهية :

— يا أخى إنى دهشت لهذه الحال ، فلا تعذلنى ، واعذرنى متفضلاً بذلك . .

قال الرجل :

— أنا والله أولى منك بالدهش والحيرة ، لأنك سجنت فى أن تقول شعراً به ارتفعت و بلغت . وأنا مأخوذ فى أن أدلّ على ابن بنت رسول الله (ص) ليقتل أو أقتل دونه . ووالله لا أدلّ عليه أبداً . والساعة يدعى بى فأقتل . . فأينا أحق بالدهش ؟ ! . . .

فقال أبو العتاهية :

— أنت والله أولى . سلمك الله وكفاك . ولو علمت أن هذه حالك ما سألتك .

قال الرجل :

— إذن لا أبخل عليك .

وأعاد له البيتين. ثم سأله أبو العتاهية من يكون ، فأجاب :

— أنا داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد .

وبعد برهة سمعا أصوات الأقفال ، فدخل الجند ومعهم الشموع فأخرجوهما ، وقادوهما إلى الرشيد . فسأل الرجل عن أحمد بن عيسى .

فقال :

— لا تسألني عنه واصنع بي ما أنت صانع . فوالله لو إنه تحت ثوبي هذا ما كشفت لك عنه .

فأمر الرشيد بضرب عنقه ، فضرب . ثم التفت إلى أبي العتاهية وقال :

— أظنك قد ارتعت يا إسماعيل . . .

فأجاب أبو العتاهية :

— دون ما رأيت تسيل منه النفوس .

فقال الرشيد :

— أو ما رجعت .

قال : « لا » فقال : « ردوه إلى محبسه ، والله لا يخرج منه حتى يقول الغزل »

فردوه إليه ، وبينما هو جالس إذ جاء الجند بابراهيم الموصلي ، وكان الرشيد قد غضب عليه ، وأمر بحبسه كذلك في المطبق ، فمكثا فيه مدة .

وذات ليلة جلس الرشيد مع وزيره جعفر بن يحيى البرمكى مجلساً مؤنساً فغنت إحدى جواريه بيتاً واحداً ، فاستحسنه وطرب طرباً شديداً .

فقال الرشيد : « ما كان أحوجه إلى بيت ثان ليطول الغناء فنستمتع مدة طويلة » فقال جعفر ، وكان يسعى لخلاص أبى العتاهية .

— ليس يصلح لذلك إلا أبو العتاهية ، فهو أقدر عليه وأسرع . فليبعث أمير المؤمنين إليه :

فقال الرشيد :

— لا يجيبنا وهو محبوس فى أنكد حال .

قال جعفر :

— بلى ، فاكتب إليه حتى تعلم ما أقول .

فكتب الرشيد إليه ألحق لنا بهذا البيت بيتاً آخر ، فأجاب أبو العتاهية :

شُغل المسكين عن تلك المحن فارق الروح وأخلى من بدَن

ولقد كُلفتُ أمراً عجباً أُسأل التفريح من بيت الحزَن

فلما بلغ الرشيد قال لجعفر : « أو لم أقل إنه لا يفعل » فقال جعفر : « فتخرجه ليفعل » قال الرشيد :

— لا حتى يقول الغزل ، ، فقد حلفت . .

وأقام أبو العتاهية وإبرهيم الموصلى فى « المطبق » حتى ضاق بهما الحال . وذات يوم قال لإبراهيم :

— إلى متى نقيم فى هذه الظلماء . هلمّ أقل شعراً ، وتغنى فيه . و بعثا إلى الرشيد بذلك . فاستدعاهما ، فقال أبو العتاهية :

بأبى من كان فى قلبى له ... مرة حبٌّ قليلٌ فسرقْ

يا بنى العباسى فيكم ملكٌ ... شُعب الإحسان منه تفترقْ

إنما هرون خير كله ... مات كل الشر مذ يوم خلقْ

فغنى به ابراهيم الموصلى ، ورضى عنهما ، وأزجى إليهما ما عرف عنه من سخاء ونعماء .

* * *

خلع أبو العتاهية رداء التصوف ، وعاد إلى قول الغزل والتشبيب وما كان من لهو فى بعض مجالس الرشيد ، فقال :

يا بن عم النبى سمعاً وطاعة ... قد خلعنا الكساء والدُرّاعه

ورجعنا إلى الصناعة لما ... كان سخط الإمام ترْكَ الصناعه

على أن الرشيد ترك له الحرية فى أن يقول ما يشاء من الشعر ، بل كان يستحسن ما يقوله فى الزهد والموت . و بقى أبو العتاهية فى هذه الحال إلى أن مرِض مَرَض الموت[1] ، فأنشأ أبياتاً ، وقال لابنته « رُقَيَّة » : قومى يا بنيّة فاندبى أباك ، فقامت وندبته بها ، ثم قال هذه الأبيات :

(١) توفى أبو العتاهية فى سنة ٢١٣ هـ وله من العمر تسعون سنة

إلهى لا تعذبنى فأنى مُقرٌّ بالذى قد كان منّى
فما لى حيلة إلا رجائى لعفوكَ إن عفوتَ وحسنُ ظنى
أُجنُّ بزهرة الدنيا جنوناً وأقطع طول عمرى بالتمنى
ولو أنى صدقتُ الزهد عنها قلبت لأهلها ظهر المجنى
يظن الناس بى خيراً وإنى لشرُّ الخلق أن لم تعف عنى



الطرب

هذه القصة لزعيم الغناء والموسيقى ابراهيم
الموصلى وهى تصور جانبا من حياة هذا الفنان
النابغة الكبير وتكشف عن جانب اجتماعى
آخر من حياة بغداد فى ذلك الحين .

وجاء ابراهيم[1] الموصلى إلى أمير المؤمنين المهدى فى قصر الرصافة شاربًا منتشيًا ،وكان شابًا مرحًا فنظر إليه فى غضب ، وقال :

— أما نهيتك يا موصلى عن الخمر واللهو والتبذل ؟ !

فقال ابراهيم :

— يا أمير المؤمنين إنما تعلمت صناعة الغناء للذتى وعشرتى لإخوانى ولو أمكننى تركها لتركتها : وجميع ما أنا فيه لله عز وجل .

فغاظ ذلك المهدى ، وقال له :

— إذن فلا تدخل على ابنى موسى وهٰرون ، ولا تصحبهما ألبتة .

(١) هو سيد أهل الغناء والموسيقى فى عصره . وكان المهدى يؤثره على سائر المغنيين وقد أراده على ملازمته ، وأقسم عليه ألا يشرب الخمر ، ولا يغنيه وهو سكران وقد ولد ابرهيم بالكوفة سنة ١٢٥ هـ وتوفى ببغداد سنة ١٨٨ هـ فى عهد الرشيد وأبوه وأمه فارسيان . وسبب كنيته بالموصلى أنه اشتهى الغناء وهو صبى فلما منعه أهله هرب إلى الموصل . وأقام بها مدة ، فلما عاد قال له اخوانه : « مرحباً بابرهيم الموصلى » فاشتهر به .

فوالله الذى لا إله غيره لئن علمتُ أنك دخلت عليهما أو صحبتهما لأفعلن بك ، ولأصنعن . . . !

فقال إبراهيم :

— نعم وسمعاً وطاعة لمولاى .

وانصرف . . ثم كان ذات يوم فخرج موسى وهٰرون للنزهة فى ضواحى بغداد ومعهما خادمهما أبان ، فالتقيا بابراهيم فى طريقهما ، فدعواه للخروج ، وألحا عليه فخرج معهما ، فغناهما وشربوا النبيذ وقضوا معاً نزهة ممتعة ، ولكن ما جاء المساء حتى كان العبد أبان قد سعى بهم إلى المهدى ، وأخبره بما جرى ، فاستدعى الموصلى ، وقال له :

— أما نهيتك عن مصاحبة موسى وهٰرون ؟ !

فأقسم أنه لم يرهما ، ولم يصحبهما ، فقال المهدى :

— وتكذب أيضاً على الله عز وجل . . !

ثم أمر بجلده ، فأخذ الجلاد يضربه ضرباً موجعاً حتى كاد يموت فصاح :

— يا أمير المؤمنين إن جرمى ليس من الإجرام التى يحل لك بها سفك دمى والله لو كان سرُّ ابنيك تحت قدمى ما رفعتهما عنه ولو قطعتا . ولو فعلت ذلك لكنت فى حالة (أبان) الساعى العبد الحقير .

فزاد غيظ المهدى ، وقال : « وتشتم أبان يا خاسر » ثم ضربه بغمد سيفه فى رأسه فشجه وأغمى عليه ساعة ، ثم أفاق ، فقال المهدى لرئيس الشرطة عبد الله بن مالك : « خذه إليك يا عبد الله ، فاحبسه » .

فأخذه عبد الله فحبسه فى دار شبيهة بالقبر ، ووكل به جارية تدعى « جَشَّة » كانت تحسن إليه ، ولكنه تأذّى مما كان فى الدار من نتن وقذارة وحشرات ، فطلب من الجارية أن تأتيه بفحم وكُنْدُر[1] ، فأتته به فلما أظلمت الدار كاد يختنق فألصق أنفه بنافذة صغيرة حتى خف الدخان وما كاد يستريح حتى رأى حيتين مقبلتين عليه من شق فى جانب الغرفة ثم أخذتا تدوران حوله بحفيف شديد ، فارتاع وهمّ أن يأخذ واحدة بيمناه والأخرى بيسراه ، وليكن ما يكون بينه وبينهما ، فإما قتلهما وإما قتلاه ، ولكنه ما كاد يفعل حتى دخلا فى الشق الذى خرجا منه ، فنجا . ! .

ومكث فى ذلك القبر مدة ، ثم بعث للمهدى ذات يوم هذه الأبيات :

ألا طال ليلى أراعى النجوم أعالج فى الساق كبلاً ثقيلا
بدار الهوان وشرّ الديار أسام بها الخسف صبراً جميلا
كثير الأخلاء عند الرخاء فلما حُبست أراهم قليلا
لطول بلائى ملّ الصديق فلا يأمنن خليل خليلا

فأخرجه المهدى ، وأحلفه بالطلاق والعتاق ، وكل يمين لا فسحة له فيها ألا يدخل على ابنيه موسى وهرون ولا يغنيهما فأقسم له وانقطع عنهما .

مكث ابراهيم الموصلى بعيداً عن دار الخليفة ، وعن وليي عهده براً بقسمه ، وخوفاً من المهدى وانتقامه حتى توفى ، وتولى الخلافة موسى

(١) الكندر لبان الذكر

الهادى ، فطلبه فامتنع إبراهيم واختفى فبعث وراءه العيون حتى أحضروه ، فقال له الهـادى :

— مالك يا ابراهيم أطلبك ، فلا تأتينى ؟ !

فقال :

— إننى أقسمت لأبيك ، وأعطيته المواثيق .

قال الهـادى :

— لا بأس عليك ادخل إلينا ، فقد أصبح العهد عهدنا ، والأمر أمرنا ولا ميثاق إلا معنا ، وقد أحللتك مما كنت فيه .

ثم وصله وقربه ، وأصاب منه مالاً كثيراً [1] ، وخيراً جزيلاً ، وبقى كذلك إلى أن مات الهـادى .

* * *

وتولى هرون الرشيد ، وقرب ابراهيم كما قربه الهـادى ، واتخذه شادياً فى مجالسه ، مطرباً فى أوقات أنسه ، مسلياً له فى ساعات فراغه ، وذات عشية استدعاه ، وجاءه مسرور يستحثه لمقابلة أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً كأنه الراكض ، حتى جاء قصر الخُلد فدخل على الرشيد ، فإذا هو جالس على كرسى فى صحن القصر الواسع وكان يؤثر الجلوس فى الصحون الواسعة ، وليس معه غير خادم يسقيه النبيذ ، وعليه غِلالة رقيقة ، وقد

(١) قال اسحاق بن ابراهيم الموصلى أخذ أبى من الهادى فى يوم واحد مائة وخمسين الف دينار ولو عاش لنا لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة

توشَّح بإزار سِنديٍّ عريض العلم مضرَّج ، فلما رأى إبرهيم هشَّ له وسُر . وقال :

— تعال يا موصلى . . إنى اشتهيت أن أجلس فى هذا الصحن ، فلم يتفق لى إلا اليوم وأحببت ألا يكون معى أحد غيرك .

ثم صاح بالخدم ، فوافاه مائة وصيف . و إذا هم بالأروقة مستترون بالأساطين فى انتظار أمره ، و إجابة ندائه ، فأمر بمقعد ، فجاءوا به وجلس عليه إبراهيم ، فقال له الرشيد :

— أطربنى بما قدرت يا إبراهيم .

ففعل حتى طرب الرشيد . و إنهما لكذلك إذا بمسرور يدخل عليه ، و يستأذن فى كلمة ثم يدنو منه و يلقى فى أذنه كلاماً بصوت خفى ، فيظهر الغضبُ على الرشيد ، وتحمر عيناه وتنتفخ أوداجه . ثم يقول :

— حتام أصبر على آل بنى طالب . والله لأقتلنهم ، ولأقتلن شيعتهم ولأفعلنّ ، ولأفعلنّ . . !

فلما رآه إبرهيم قد تغيرت حاله ، أراد أن يسرّى عنه ، ويزيل ما عكّر صفاءه ، فاندفع يغنى :

نِعْم عوناً على الهموم ثلاثُ	مترعات من بعدهن ثلاثُ
بعـــدها أربع تتمة عشر	لا بطاء لـكنهن حثاثُ
فإذا ناولتكهن جوار	عطرات بيض الوجوه خناثُ
تم فيها لك السرور وما طيِّـ	ـب عيشاً إلا الخناث الإناثُ

فقال الرشيد :

— ويلك . . هات أيها الساقى ثلاثاً . . لا أموت همًّا » .

فشرب ثلاثاً متعاقبة . ثم قال لإبراهيم : « غنّ . وأعد ما غنيته » . فغنى ، فلما قال :

« ثلاث مترعات من بعدهن ثلاث »

قال للساقى : « هات ويلك ثلاثاً أخرى » فشرب ثلاثاً متعاقبة . ثم قال لإبرهيم « غن يا إبرهيم » فغنى ، فقال للساقى : « حُثَّ علىَّ بأربع تتمة العشر » ففعل الساقى وطرب الرشيد حتى إذا سكر قال لابرهيم :

— قم يا موصلى ، فانصرف . ثم بكّر علىَّ غداً حتى نصطبح .

فأجاب إبرهيم :

— سمعاً وطاعة . أنا والصبح كفرسى رهان .

* * *

ثم كان الصباح ، فبكر إبراهيم ، ودخل على الرشيد فى قصر[1] الخلد ، فرأى بين يديه جارية حسناء كأنها خُوط بانٍ أو جَدْل عنان ، جميلة القد ساحرة باهرة . وفى يدها عود ، وعليها غلالة شفافة ، فقال لها الرشيد « غن » فغنت فى شعر أبى نواس :

توهمه قلبى ، فأصبح خده ... وفيه مكان الوهم من نظرى أُثْرُ

ومر بفكرى خاطراً فجرحته ... ولم أر جسما قط يجرحه الفكرُ

(١) بنى هذا القصر أبو جعفر المنصور على الضفة الغربية من نهر دجلة . وكان الرشيد يفضل الإقامة فيه كثيراً .

وصافحه قلبي فآلم كفه فمن غمز قلبي في أنامله عَقْرُ

فطرب الرشيد ، والتفت إلى إبراهيم ، وقال له :

— هل طربت ؟

قال :

— نعم يا أمير المؤمنين ، ومَن تلك الجارية ؟

فقال الرشيد : هذه التي يقول فيها الشاعر :

لها قلبي الغداةَ ، وقلبها لي فنحن كذاك في جسدين روحُ

ثم قال لها : « غني » فغنت من شعر أبي الشيص :

تقول غداة البين إحدى نسائهم لي الكبد الحرّى، فسر ولك الصبرُ
وقد خنقتها عَبرة فدموعها على خدها بيض وفي نحرها صُفرُ

فطرب الرشيد ، وشرب وسقى إبراهيم . ثم قال : « غن يا موصلي » ففنى بما في قلبه من تأثر بهذه الجارية الحسناء ، فقال :

تشرّب قلبي حبها ومشّى به تمشّي حميًّا الكأس في جسم شاربِ
ودب هواها في عظامي فشفها كما دب في الملسوع سمُّ العقاربِ

ففطن الرشيد لتعريضه بالجارية ، فأمره بالسكوت والانصراف ، فقام ولم يدعه الرشيد إليه شهراً كاملا ، ولا اجترأ على حضور مجلسه . حتى إذا كان ذات يوم دس الرشيد إليه خادماً معه رقعة مكتوب فيها على لسان الجارية الحسناء :

قد تخوّفتُ أن أموتُ من الوجـ ـد ولم يدر من هويتُ بما بي

يا كتابي فاقرَ السلام على من   لا أسمِّي وقل له يا كتابي .
إن كفًّا إليك قد بعثتني   في شقاء مواصل وعذاب

فأتاه الخادم بالرقعة ، فقال له إبراهيم :

— ما هذا ؟

— رقعة من فلانة جارية أمير المؤمنين .

فأحس إبراهيم بالدسيسة ، فوثب على الخادم، فضربه حتى كاد يقتله وركب إلى الرشيد من فوره ، وأخبره القصة ، وأعطاه الرقعة ، فضحك الرشيد ، وقال له :

— على عمد فعلتُ ذلك بك لأمتحنك . . !

فقال إبراهيم :

الحمد لله الذي جعلني عند حسن ظن أمير المؤمنين !

وحضر الخادم فلما رأى إبراهيم قال له :

— ويحك كدتَ والله تقتلني ، قطع الله يديك ورجليك . !

فقال له إبراهيم :

— القتل والله كان بعض حقك لما فعلت ، ولكني رحمتك فأبقيت عليك ، وتركت لأمير المؤمنين ليأتي في عقوبتك بما تستحقه ؟

فابتسم الرشيد ، وقال :

— لا بأس عليك يا موصلي وإني أدعوك غداً لمجلس أنسي ، فلا تشغل نفسك بشيء ولا تشرب نبيذاً ، وكن بحضرتي في وقت العشاء ، فإنه ليس عندي غيرك من المغنين .

. فقال إبراهيم :

— السمع والطاعة لأمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— إياك أن تتأخر . وحق أبي لئن تأخرت أو اعتللت بشيء لأضربن عنقك أفهمت ؟ . .

قال إبراهيم :

— نعم يا أمير المؤمنين ، فو الله لا أعدل بك أحداً . .

***

خرج إبراهيم الموصلى ، وفى عنقه موعد الخليفة ، وفى عزمه الذهاب إليه فى عشية اليوم التالى ، فاعتذر عن كل عمل ، وانصرف عن كل صديق حتى إذا اقترب الموعد خرج قاصداً قصر الخلد حيث الرشيد فى انتظاره . و بينما كان فى طريقه مر بأحد منازل بغداد ، فرأى نافذة مفتوحة وقد تدلى منها زنبيل كبير مستوثق منه بحبال . و وقفت بجانبه جارية تنتظر إنساناً ليجلس فيه .

فنازعت إبراهيم نفسه الجلوس فى الزنبيل ، وأغراه حب الاستطلاع بالصعود إلى هذا المنزل المجهول ، ولكنه تذكر وعد الخليفة وتذكر إيعاده بالهلاك ، إذا هو تأخر عن الحضور ، وما زال ينازع نفسه ، ونفسه تنازعه حتى غُلب على أمره ، فجلس فى الزنبيل ، وما كاد يجلس فيه حتى رفع إلى أعلى ، فدخل فإذا بالمنزل جوار كأنهن المها رشاقة وقداً ، أو كأنهن

الزهور نضارة وندآ ، فتضاحكن وقلن « جاء والله من أردنا » . ثم اقترين منه ، فأنكرنه وتسارعن إلى الحجاب ، وقلن :

— يا عدو الله ما أدخلك إلينا ؟ . .

فأجابهن :

— يا عدوات الله . ومن الذى أردتن إدخاله ؟ ولمَ صار أولى بهذا منى ؟ . . فضحكن ، وقالت إحداهن :

— أما من أردناه ، فقد فات ، وما هذا إلا ظريف ، فهلم نعاشره عشرة جميلة ، ونجلس معه مجلساً لطيفاً

وجلس ابرهيم بينهن ، فاحضرن النبيذ ، فشرب وشربن ، ثم تقدمت ثلاث جوار ، فغنين غناء مليحاً ، فغنت إحداهن صوتاً لمعبد ، فقالت احدى الجوارى « هذا لإبرهيم . احسن والله » ! فقال : « كذبت هذا لمعبد » قالت : « يا فاسق وما يدريك الغناء » . ثم غنت الأخرى صوتاً للغريض ، فقالت تلك الجارية : « أحسن ابراهيم . هذا أيضاً له » فقال : « كذبت ليس هذا له » فقالت : « ويلك وما يدريك ! » ثم غنت الثالثة صوتاً لإبراهيم ، فقالت تلك الجارية « أحسن ابن سريج هذا له » قال إبراهيم : « كذبت هذا لإبراهيم ، وأنت تنسبين غناء الناس إليه وغناءه إليهم » . فقالت : « ويحك وما يدريك » قال لها :

— أنا إبراهيم

فتباشر الجوارى وطربن ، وظهرن كلهن له ، وقلن : « كتمتنا نفسك وقد سررتنا » .

فقال لهن : « أنا الآن أستودعكن الله » .

قلن : « وما السبب ؟ » .

فأخبرهن بقصته مع الرشيد ، فضحكن وقلن: « الآن طاب والله حبسك . علينا وعلينا إن خرجت أسبوعاً » . . !

فقال :

— هو والله القتل..!

قلن :

— إلى لعنة الله .. !

فأقام إبراهيم عندهن أسبوعاً ، ثم ودعنه ، وقلن : « إن سلمك الله فأنت بعد ثلاث عندنا » . فقال : « نعم » . ثم أجلسنه فى الزمبيل وأنزلنه ، فمضى .

* * *

كان النداء قد أشيع ببغداد فى طلب إبراهيم الموصلى ، ووعد الخليفة كل من أحضره بالجوائز ، فذهب إبراهيم إلى الرشيد ، فتبادر الخدم حتى أدخلوه عليه فلما رآه نظر إليه مغضباً ، وقال :

— السيف والنطع . . إيه يا إبراهيم . . تتهاون بأمرى ، وتشتغل بالعوام عن مجلسى ، وتلهو مع أشباهك السفهاء لتفسد علىّ لذتى ؟ ! ...

فأجاب :

— يا أمير المؤمنين . . أنا بين يدك . وما أمرت به غير فائت . ولى حديث عجيب وهو الذى قطعنى عنك كرهاً لا اختياراً ، فاسمعه ، فإن كان عذراً ، فاقبله وإلا فأنت أعلم .

قال الرشيد :

— هات فليس ينجيك . !

فقص عليه إبراهيم قصة الجوارى والزنبيل . فسكت ساعة ، ثم قال :

— إن هذا لعجب . أفتحضرنى معك هذا المنزل ؟

قال إبراهيم :

— نعم وأجلسك معهن إن شئت قبلى حتى تحصل عندهن ، وإن شئت فعلى موعد .

قال الرشيد : « بل على موعد » فقال : « أفعل »

وذهب إبراهيم إلى الجوارى ، فقال لهن : « إن لى أخاً هو عِدْل نفسى . وقد أحب زيارتكن ووعدت بذلك »

فقالت الجوارى : « إن كنت ترضاه فمرحباً به » .

وتواعد وإياهن على الليلة التالية ، وانصرف إلى الرشيد ، فأخبره .

فلما كان الموعد خرجا معاً متخفيين حتى أتيا القصر ، فوجدا الزنبيل ، فصعد إبراهيم أولاً ، ثم صعد الرشيد ، وكان قد أمره ألا يخاطبه بأمير المؤمنين بينهن ، واستقبلتهما الجوارى ، فلما رآهن الرشيد ورأينه عرفهن

وعرفنه فتواثبن واختفين ، فاستدعاهن الرشيد ، فحضرن ، وأحضرن النبيذ ، فشرب وشرب إبراهيم وشربن ، ثم أخذ بعضهن فى الغناء فغنت إحداهن :

ألا يا حمامات اللوى عُدن عودة   فإنى إلى أصواتكن حزينُ
فعدن ، فلما عدن كدن يمتننى   وكدت بأسرارى لهن أبينُ
دعون بترداد الهدير كأنما   سُقين حمياً أو بهن جنونُ
فلم تر عينى مثلهن حمائماً   بكين ولم تدمع لهن عيونُ

فطرب الرشيدى ، ثم قام وقام إبرهيم ، ونزلا من القصر . وإذا هؤلاء الجوارى للخليفة ، وكان قد غضب عليهن . ثم وجه إليهن فى الغد بخدم فاعادهن إلى قصره .

* * *

بقى ابراهيم فى خدمة الرشيد ، وكان سيد عصره فى الغناء ولم يكن ينازعه تلك المكانة غير ابن جامع . حتى إذا كانت سنة ١٨٨ ﻫ مرض واشتد عليه المرض فانقطع فى داره عن خدمة الخليفة . وجاءه هرون الرشيد يعوده يوماً فى منزله ، فقال له :

— كيف أنت يا إبرهيم ؟

فقال أنا والله يا سيدى كما قال الشاعر :

سقيم ملّ منه أقربوه   وأسلمه المداوى والحميمُ

قال الرشيد : « إنا لله » ! وخرج فلم يبعد حتى سمع نعيه . وقد مات في يومه الكسائي النحوي . وعباس بن الاحنف الشاعر، فأمر الرشيد ابنه المأمون أن يصلي عليهم ، نخرج للصلاة ، فأمر بتقديم عباس بن الأحنف فصلّى عليه ، ثم صلّى على إبرهيم ، فقيل له :

— كيف آثرت العباس بالتقدمة !

قال لقوله :

وسعى بها ناس فقالوا إنها لهى التى تشقى بها وتكابدُ
فجحدتهم ليكون غيرَك ظنُّهم أنى ليعجبنى المحب الجاحدُ



زُبَيْدَة

كانت زوجة الرشيد « أم جعفر زبيدة[1] »
أعظم ركن فى القضاء على البرامكة ونكبتهم
الشهيرة ، ولم يعن المؤرخون بهذه الناحية التى
تراها مستوفاة فى هذه القصة وهى تصور حياة
هذه السيدة الشهيرة والدور الذى امبته فى تلك
الحادثة تصويراً دقيقاً ...!

وجلس هرون الرشيد فى قصر الخلد على سرير من الذهب مرصع بالجوهر ، ووراءه حارسان بيد كل منهما سيف مسلول ، وقد نصب السرير فوق سُدَّة فى صدر الإيوان قائمة على عمد قصيرة من الأبنوس المنزل فيه العاج . وسقفها من الديباج الأسود المزركش بالذهب برسوم فنية جميلة ، وازدانت حاشيتها من الأمام والجانبين بأهلة من الذهب ، مدلاة فيها درر من الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق على نظام باهر بديع .

وقد ارتدى الرشيد جبة سوداء فوقها بردة النبى صلى الله عليه وسلم وفى يده الخاتم والقضيب وعلى رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الخز الموشى ، وبين ثنايا العمامة عقود من الجوهر السمين ، وفى مقدمتها

(١) زبيدة زوجة الرشيد ، وكنيتها أم جعفر وهى ابنة جعفر بن أبى جعفر المصور تزوجها الرشيد سنة ١٦٥هـ ، وولدت له محمد الأمين وتوفيت سنة ٢١٦هـ فى عهد المأمون

فوق الجبهة طُرّة من أسلاك الذهب المرصع بالزمرد والياقوت على هيئة عرف الطاووس .

وعلى مقربة منه جلس وزيره جعفر البرمكى وبعض قواده وعلى رأسهم كبيرهم هرثمة بن أعين، وكان قد انتهى من الوفد الذى أرسله اليه ملك الهند ثم استأذن عليه رجل من بلدة « مرو » بخراسان ، فأذن له ، فلما مثل بين يديه قال الرجل :

— يا أمير المؤمنين نصيحة . . . !

فالتفت الرشيد إلى هرثمة بن أعين وقال :

— خذ الرجل اليك وسله عن نصيحته ...

فأبى الرجل وقال :

— هى سر من أسرار الخليفة لا أطلع عليه سواه .

فقال الرشيد :

— إذن فعندك حتى أفرغ . .

وخرج ، فانتظر فى إحدى الغرف حتى فرغ أمير المؤمنين من شئونه ، ثم دعا بالرجل فقال له :

— هات ما عندك ! .

قال الرجل :

— أخلنى يا أمير المؤمنين .

فالتفت إلى وزيره وقواده ، وقال « انصرفوا يا رجال » ، فانصرفوا

وبقى حسن وخاقان حارساه ، فنظر إليهما الرجل ، فقال الرشيد : « تنحيا عنى » ففعلا ثم أقبل على الرجل ، وقال :

— ماذا وراءك ؟

فقال الرجل :

— كنت يا أمير المؤمنين بحلوان فى خان من خاناتها ، فاذا أنا بيحيي[1] بن عبد الله العلوى فى درّاعة صوف غليظة وكساء صوف أخضر ، وإذا معه جماعة ينزلون إذا نزل ، ويرحلون إذا رحل ، ويكونون منه بصدد ، يوهمون من رآهم أنهم لا يعرفونه وهم من أعوانه ، ومع كل واحد منهم منشور ، يوزعه على كل من يأمن له . وقد رأيت فيهم من رجال يحيى[2] بن خالد البرمكى من يشايعونه فى السر ، ويتظاهرون بالولاء لأمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— أو تعرف يحيى بن عبد الله ؟

فقال الرجل :

— أعرفه قديماً ، وذلك ما حقق معرفتى به فى هذه الحال .

— صفه لى . . .

---

(١) هو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أحد زعماء العلويين

(٢) يحيى بن خالد البرامكي والد جعفر ، ومربى الرشيد ، ووزيره ومستشاره الأول قبل أن يفتك بالبرامكة

— مربوع أسمر اللون رقيق السمرة أجلح[1]، حسن العينين عظيم البطن

— صدقت ، هو ذاك ، فماذا سمعته يقول ؟

— ما سمعته يقول شيئاً . . غير أنى رأيته يصلى ورأيت غلاماً من غلمانه أعرفه قديماً جالساً على باب الخان ، فلما فرغ من صلاته أتاه بثوب فألقاه فى عنقه ، ونزع جبته الصوف ، فلما كان بعد الزوال صلى صلاة ظننتها العصر ، وأنا أرمقه ، أطال فى الأوليين ، وخفف فى الأخريين .

— لله أبوك . إنك لصادق فيما حفظت . نعم تلك صلاة العصر وذاك وقتها عند القوم . أحسن الله جزاءك وشكر سعيك . . فمن أنت ؟

— أنا رجل من أعقاب هذه الدولة ، وأصلى من مرو ، ومولدى مدينة بغداد .

فقال الرشيد : وكيف احتمالك لمكروه تمتحن به فى طاعتى ؟

قال الرجل :

— أبلغُ من ذلك حيث أحب أمير المؤمنين ....

فقال الرشيد : كن بمكانك حتى أرجع .

ثم قام الرشيد ، فأتى بكيس فيه ألفا دينار ، فدفعها إلى الرجل وهو يقول له :

(١) الأجلح الذى انحسر شعره عن جانبى رأسه

— خذها ودعني وما أدبر فيك .

فأخذها الرجل ، وخبأها في ثوبه ، ونادى الرشيد « ياغلام » فأجابه حارساه « حسين وخاقان » فقال لهما مشيراً اليه :

— اصفعا ابن اللخناء .

فصفعاه عدة صفعات . ثم قال لهما : « اخرجاه إلى من بقي في القصر وعمامته في عنقه ، وقولا هذا جزاء من يسعى ببطانة أمير المؤمنين وأوليائه » !

***

كان الرشيد يكره العلويين وشيعتهم كسائر العباسيين ، ويخافهم على دولته ، وكان زعيم الشيعة وداعيتها في خراسان في ذلك الحين يحيي بن عبد الله أخو محمد بن عبد الله الذى حاربه المنصور وظفر عليه وقتله فقام يحيي بعده بالدعوة في بلاد الديلم سنة ١٧٦ هـ ، وعلم الرشيد بأمره وتعقبه في كل مكان ، وكان يشجع كل من يأتيه بخبره ثم أرسل اليه الفضل بن يحيي البرمكى على رأس جيش كبير لمحاربته ، وكان الفضل كسائر البرامكة يخفون عن الرشيد تشيعهم للعلويين سراً ، لذلك اختار مصالحة يحيي على الحرب ، وضمن له الأمان فأجابه يحيي ، وعاد معه إلى بغداد ، فأكرم الرشيد مثواه ، وأمنه زمناً ، ثم أفسدت الدسائس ما بينهما ، وتشكك الرشيد في أمره ، فكبله بالحديد ، ودعا بوزيره جعفر

ابن يحيى البرمكى واستشاره فى أمره ، فأشار بحبسه عنده على أن يضمنه ، فدفعه اليه قائلا . . . !

— هو فى ضمانك ، وفراره عليك :

قال :

— نعم يا أمير المؤمنين .

وأخذه جعفر ، وحبسه فى بعض داره ، وأقام حوله الحراس، وكان يصله ويزوره سراً حتى إذا كان ذات يوم زاره فيه جعفر توسل به يحيى ، وألح فى توسله ليطلقه من سجنه ، وقال له :

— ياجعفر اتق الله فى أمرى ، ولا تتعرض لأن يكون خصمك غداً جدى محمد صلى الله عليه وسلم فوالله ما أحدثت حدثاً ، ولا آويت محدثاً ولا تعرضت لما يكره أمير المؤمنين .

فرق له جعفر ، وتحرك فى نفسه ما يخفيه من التشيع للعلويين ، وأطلقه قائلاً :

— اذهب حيث شئت من بلاد الله ، ولا تظهر لأمير المؤمنين . !

فقال :

— وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل ، فأرد اليك أو إلى أحد غيرك .

فبعث جعفر معه من تسلل به ، وأداه إلى مأمنه .!

***

وبلغ الخبر الفضل[1] بن الربيع ، فبعث به إلى زبيدة زوجة الرشيد ، وكانت زبيدة شديدة العصبية لبنى العباس ، وقد أقلقها نفوذ البرامكة ، واتساع سلطانهم وضعف النفوذ العربى فى ذلك الحين ، وحقدت على جعفر وآله ، وزاد فى حقدها ما فعله فى ابنها الأمين ، وتقديم المأمون عليه وهو ابن ضرتها « مراجل » الفارسية ، ومبايعته بالعهد فى يوم واحد مع الأمين . وقد استعانت بالفضل بن الربيع فى الكيد للبرامكة ، وتدبير المؤامرة ضدهم ، وكان الفضل ينتهز كل فرصة للايقاع بهم والحط من شأنهم ، وكان قصرها « دار القرار » على شاطىء نهر دجلة مقصداً لصنائعها وعيونها من الجوارى والغلمان الذين يتجسسون على البرامكة ، وينقلون إليها الأخبار . فلما علمت بفرار يحيى بن عبد الله أنبأت هرون الرشيد وقصت عليه ما حدث . فاغتاظ وتغير ما فى نفسه ، ولكنه كظم غيظه وأخفى غضبه ، وكان اليوم الثانى فذهب إلى مجلسه ، وجاء جعفر ابن يحيى فجلس مكانه وجلس القواد ورجال الدولة ، فنظر الرشيد إلى جعفر وقال :

— ما حال يحيى بن عبد الله العلوى ياجعفر ! .

فأجاب :

— هو كما أمر أمير المؤمنين فى الأكبال والحبس الضيق . . !

(١) الفضل بن الربيع بن يونس ، وكان والده وزيراً المنصور والمهدى ، وقد حل محله فى الوزارة والدولة يحيى البرامكي وجعفر ابنه فى ذلك الحين

قال :

— بحياتى . . !

فأحجم جعفر ، وكان من أدق الناس ذهناً ، وأسرعهم فكراً ، وأيقن أن الرشيد علم . . .

فقال :

— لا ، وحياتك ياسيدى . . ولكن أطلقته ، فقد علمت بعدُ أن لا مكروه عنده ورأيت أن عفو أمير المؤمنين يتسع لمثله . ولولا ذلك ما أطلقته . . !

قال الرشيد ، وهو يكبت غيظه :

— نعمَ ما فعلت يا جعفر ، ما عدلت عما كان فى نفسى . . !

وقام الرشيد ، وانفض مجلس الخليفة ، وأذن لوزيره بالانصراف ، فلما انصرف أتبعه ببصره إلى أن توارى وهو يقول :

— قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك . . !

* * *

ذهب الرشيد مُحنَقا مفكراً ، وأقلقه التفكير فى شأن جعفر وآله البرامكة ، وتشيعهم للعلويين على الرغم من تقريبه لهم ، وإيثارهم عنده على سواهم ، وزاد فى قلقه أنه أتاح لهم الجاه والنفوذ ، وكثرة الأنصار وسعة السلطان ، وملّكهم مقاليد الدولة وشئون الخلافة ، فكيف الخلاص منهم ، وقد بات لا يأمن انقلابهم عليه ، وسلبه ملكه ونقله للعلويين .

لا بد أن يحمى نفسه ويحافظ على تراث أبى العباس والمنصور ، ويضحى بكل شىء فى هذا السبيل .. اهتم الرشيد وشملته الهموم والمخاوف وعلمت زبيدة أن الرشيد مهموم ، وأنه جالس وحده فى قصر الخلد ليس عنده أحد من الندماء ، فبعثت إليه تقول :

— يا أمير المؤمنين إنى لم أرك منذ ثلاثة أيام . وهذا اليوم الرابع .

فأرسل إليها :

— عندى ابن جامع وقد حضر الآن بآلات الطرب .

فأرسلت :

— أنت تعلم أنى لا أهنأ بشراب أو سماع إلا أن تشاركنى فيه ، فما كان عليك إذا شاركتك فى الذى أنت فيه .

وكان الرشيد يحبها ولا يرد لها طلباً ، وكانت جميلة الصورة ، مشرقة الوجه ، صغيرة الفم سوداء العينين ، بيضاء البشرة ، طويلة القامة مع سمن قليل ، يزينها وقار الهاشميين ، وكانت ترتدى رداء من الحرير ، وتمنطق فوقه بمنطقة مذهبة مرصعة بالجواهر ، وترسل شعرها على كتفيها وتعصب رأسها بعصابة بسيطة من الوشى المطرز . وكان جمالها يغنيها عن التحلى بالذهب والماس . ولكنها تحلى خفيها بالجوهر النفيس .

وكانت إذا جلست حفَّت بها الجوارى الحسان من كل جانب ، وعلى رءوسهن العمائم ، وفى أوساطهن مناطق الذهب والفضة ، وفى أيدى

بعضهن جامات المسك ، وفى أيدى البعض الآخر قوارير الطيب . فبعث إليها الرشيد يقول :

— يا أم جعفر إنى سائر إليك اليوم ، فأعدّى لنا مجلساً حسناً . . !

فأمرت الجوارى والغلمان ففرشوا الحديقة بالبسط والسجاجيد ، وأقاموا ستائر الديباج المطرزة بالقصب ، والمنقوشة بالنقوش البديعة ، وأبيات الشعر الرشيق ، وأضاءوا شموع العنبر على منائر الذهب ، وأشاعوا فى القصر رائحة المسك ، وزانوا قاعاته بعرائس الزهور . وحضرت الجوارى المغنيات بآلات الطرب . وقد ازدانت كل جارية منهن أجمل زينة ، و بعثت « زبيدة » لعُليّة [1] بنت المهدى أن تحضر عندها فى ذلك اليوم .

فحضرت عُلية واستعدت الجوارى . ولما انتهى الرشيد من صلاة العصر ذهب إلى « دار القرار » وما كاد يجلس قليلا فى مكانه حتى خرج الجوارى وكلهن فى صوت واحد ينشدن :

منفصلٌ عنى وما قلبى عنه منفصلْ
يا قاطعى اليوم لمن نويت بعدى أن تصلْ

فابتسم الرشيد وطرب طرباً شديداً ، وقام على رجليه حتى استقبل زُبيدة وعُلية وهو فى غاية السرور ، وقال لهما : « لم أر كاليوم قط » . ثم قال لعلية : « هات ما عندك » فغنت :

(١) كانت عليه بضم العين أخت الرشيد من أحسن الناس صوتا ، وأعلمهم بالشعر وأقدرهم على الغناء .

طال تكذيبي وتصديقي　　لم أجد عهداً لمخلوقِ
إن ناساً فى الهوى غدروا　　أحدثوا نقض المواثيقِ
لا ترانى بعدهم أبداً　　أشتكى عشقاً لمعشوقِ

فهز الرشيد رأسه وقال :

— ويحك يا عُلية . . نعم لم أجد عهداً لمخلوق . :

ثم جعل يرددها مراراً ، وسكت ، فسكت من فى المجلس ، وظهر التفكير على الرشيد وأشار بيده ، فانصرفت الجوارى وخرجت عُليَّة وخلت القاعة إلا من الرشيد وزبيدة فقالت :

— ما لأمير المؤمنين قد سكت واكتأب ، وكان منذ آونة ضاحكا طروباً ؟ ! . .

فلم يجبها ، فأعادت عليه السؤال ، فأجابها بعد برهة :

— هل بلغك ما فعله جعفر البرمكى . هذا الوزير الذى اتخذته أخاً ، وأئمنته على شئون دولتى ، وخاصة أمرى ، وسمحت له بالدخول معى على حريمى ، وقد وثقت به ومكنت له ولأهله النفوذ والسلطان ، وآثرتهم حتى على ذوى عصبيتى من بنى هاشم ؟ .

قالت زبيدة وهى تتجاهل :

— وماذا فعل ؟ ! . .

قال الرشيد :

— أطلق يحيى بن عبد الله العلوى بعد أن قبضنا عليه بشق النفس ،

وأمنا شره ، وكفيت ثورة أشياعه بخراسان . ولقد كنت أشك فيما كان يصلني عن جعفر والبرامكة من تشيعهم للعلويين .

« ولكنني بعد ما رأيت من دفاع أبيه عنهم ، ومساعدتهم لهم سراً، ثم ما رأيت من إطلاق جعفر لزعيمهم وداعيتهم ، أصبحت لا آمنهم على شيء أبداً .

قال الرشيد ذلك بغضب شديد ، فضحكت زبيدة ضحكة عالية ، فدهش الرشيد وقال لها :

— وما يضحكك يازبيدة . . أما تغضبين لغضبي ؟ !

قالت زبيدة :

— أضحك يا مولاي لأنك كنت تضحك مما أقوله لك عن جعفر بن يحيى وآله وتهزأ مني ، وتقول أنك عربية وهو فارسي ، وما أظن يا زبيدة إلا أنك تتعصبين لقومك .

— نعم كنت أظن ذلك . . .

— وهل أيقنت الآن يا أمير المؤمنين بما قلته لك ، وقاله الفضل بن الربيع ، وهل عرفت أن جعفراً وآله البرامكة هم أعدى أعدائك ، وإذا تماديت في تركهم مسيطرين على هذه الدولة سينقلون الأمر إلى العلويين . وأشياعهم في خراسان كثير .

— وماذا أعمل يازبيدة ، وقد مكّنت لهم ، ورفعت شأنهم ، وكثرت أشياعهم . ومن قبل كانوا أعوان أبي وجدي .

— يا أمير المؤمنين . . ما أظنهم إلا أعداء أبيك وجدك ، بل هم أعداء كل عباسى فى هذه الدولة . . أونسيت أن لهم ثأراً عند جدك المنصور منذ قتل شيخهم أبا مسلم الخراسانى وهم يتربصون بأبنائه الدوائر ويعملون للانتقام .

— ولكنهم يا زبيدة خدموا دولتنا ، وأعانونا على العلم والدين ، وكانوا الأساطين التى قام عليها ملك بنى العباس .

— ما كان لهم ذلك لولا دعوتنا والتفاف الناس حولنا ، ولا يخدعنّك منهم هذا النفاق فى الإخلاص ، والتظاهر بالولاء ، فهم يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، ويأتون فى الخفاء ما لا يظهر لك فى العلانية . .

— وهل فعلوا غير ما سمعته ورأيته ؟ !

فهزت زبيدة رأسها ، وقالت :

— لقد خانوك يا أمير المؤمنين . . نعم خانوك فى أهلك بما هو أشنع من إطلاق جعفر ليحيى العلوى من سجنه . . .

فاعتدل الرشيد فى مكانه ونظر إليها فى اهتمام ، وقال :

— ماذا تقولين . . خانونى فى أهلى . . !

فسكتت زبيدة ، فصاح الرشيد :

— قولى . . خانونى فى أهلى . . ماذا أسرعى . . حدثينى . .

— لا أستطيع أن أقول . . إن لسانى لا يساعدنى على إن أفضى إليك بهذه الخيانة الشنعاء . !

— لا بد أن تقولى . .

— إنى أشير إليها إشارة صغيرة .

— لا ، بل قولى كل شىء . . قولى ما عندك ، فوالله لا أبرح هذا المكان حتى أسمع منك هذه الخيانة .

قالت زبيدة :

— أختك العباسة . . . !

قال الرشيد :

— ما شأنها ؟ !

— ألم تسمح لها بحضور مجلسك وجعفر معك . .

— بلى . . وماذا كان فى ذلك ؟

— أولم تقل لجعفر أزوجك إياها ليحل لك النظر إليها إذا حضرت مجلسى ؟

— بلى . . وقد حدث . .

— أو لم تشرط عليه ألا يقربها كما يقرب الرجل زوجته . !

— بلى . . وقد وعد . .

— وهل تعلم أنه وفى بوعده ؟ !

قال الرشيد ، وقد احمر وجهه غيظاً :

— ماذا تقولين ؟ !

— أقول إنه لم يف بوعده . . ولست أقول غير ذلك ، ولكن

أبعث فى طلب « ارجوان » خادم أختك العباسة ، واسأله ، وهدده بالقتل حتى يكشف لك ما يعلم .

فبعث الرشيد فى طلب ارجوان ، فحضر فوراً إلى دار القرار ، فلما رآه الرشيد صاح :

— احضروا مسروراً . وليحضر معه السيف والنطع . !

فأوجس ارجوان شراً ، وقال :

— أصلح الله الأمير . . لماذا يدعونى ؟

قال الرشيد :

— ستعلم . . .

ثم نادى مسروراً أن يأخذ بيده ، فارتجف أرجوان ، وقال :

— الأمان يا أمير المؤمنين . . ماذا فعلت ؟ .

وجثا يقبل قدميه ، فقال الرشيد :

— برئت من المهدى ، إن لم أقتلك ، أو تصدقنى نبأ العباسة وجعفر

فبكى ارجوان ، وتلعثم من الخوف ، فقال الرشيد :

— أنى أعلم كل شىء ، فأصدقنى .

فايقن أرجوان أنه يعلم تفاصيل ما بين العباسة وجعفر ، فقص عليه نبأها ، وأعلمه أن العباسة قد ولدت من جعفر ولداً ، وأرسلته إلى المدينة

---

(١) مسرور خادم الرشيد ، وكان موكلا بقتل من يأمر الرشيد بقتله ، وكان غليظ القلب يفاخر بعدد من قتلهم

مع حاضنة له حتى يكون بعيداً عن عيون أمير المؤمنين .

قال الرشيد :

— وكيف يحدث ذلك ، ثم لا تخبرنى ؟! .

فقال أرجوان :

— أنك أمرتنى ألا أمنع جعفراً من الدخول على أهلك ليلاً أو نهاراً

فلما سمع الرشيد ذلك كاد يتميز غيظاً ، وقال :

— نعم ، ولكن حين حدث ما حدث لماذا لم تخبرنى ، وكتمت عنى هذا الأمر ؟

ثم صاح الرشيد بمسرور :

— أضرب عنق هذا الخائن . . !

فاقتاده مسرور إلى النطع وهو يستغيث وينتحب ، وضرب عنقه ..!!

***

كانت زبيدة فى تلك الآونة قد دخلت إلى قاعتها ، حتى لا تشهد هذا المنظر الأليم ، ثم دخل عليها الرشيد ، فقال لها :

— أرأيت ماجره علىّ هذا الوزير من العار والفضيحة . . انه يخوننى فى أهلى ، ثم يخوننى فى سلطانى والله ليلقين جزاءه .

— لقد مكنتَ له فى ذلك كله يا أمير المؤمنين ، وهو شاب جميل ، وله آمال ومطامع ومن ورائه شيعة يكيدون لبنى العباس ويتربصون بهم ، ويوقدون النار فى الخفاء .

— وهل تظنين أن الأمر ينتقل للبرامكة ؟

— ولماذا ، وقد تزوج وزيرهم من العباسة ابنة المهدى ، وحفيدة المنصور وأعقب منها ولداً يدعى به ويدعى إليه .

— والله لن يكون للبرامكة ، ولا للعلويين ، وسأقضى عليهم جميعاً

ثم قام من فوره إلى دار أخته العباسة ومعه مسرور وخادمان آخران

وكانت العباسة (١) قد علمت باستدعاء الرشيد خادمها أرجوان من جاريتها مكنونة ، فوقفت فى الشرفة وقد استرابت ، وهجس فى نفسها أنه دعى لأمر خطير . ثم أرتاعت لما علمت من مكنونة أن مسروراً مع الرشيد ، فقالت لها مكنونة :

— انزلى ياسيدتى ، واطلبى الفرار . . انزلى من هذه الشرفة ، واختبئى فى الشارع وسأرسل لك من يصحبك إلى الوزير جعفر . . انزلى . . انزلى

ولكنها لم تنزل ، وشل الخوف حركتها . وأقبل الرشيد ، ومعه مسرور والخادمان فأمر بإغلاق القصر . ثم دخل على العباسة فاستقبلته مرحبة ، وقالت :

— لقد شرفنى أخى بزيارته الليلة . !

فلم يجبها الرشيد ، وجلس صامتاً . فقالت وهى ترتعد :

— خير جاء بك يا أخى فى هذه الساعة من الليل والناس نيام ! !

قال الرشيد فى غضب :

---

(١) هذه الصفحة عن جرجى بك زيدان بتصرف فى الأسلوب

— ألا تعلمين لماذا جئتك فى هذه الساعة والناس نيام ! ! . .

فقالت : « لا » قال : « لخيانتك »

— لا أعرف أننى ارتكبت خيانة . . !

— أتجيبيننى بهذه الوقاحة يافاجرة . وقد أصبحت خيانتك معروفة ؟!

— وأية خيانة تعنى ؟

— أعنى خيانتك مع جعفر الذى لم يرع حرمتى . !

— ألم تعقد علىّ لجعفر عقداً شرعياً صحيحاً . !

— بلى ، ولكننى فعلت ذلك ليحل النظر فقط . .

— وهل يجوز العقد على هذه الصورة . وإذا جوّزته أنت ، فهل يعد من يتم شروطه خائناً . . ثم هل أتينا إلا أمراً حلله الله ، وحرمته أنت . . أليست طاعة الله أولى من طاعة أمير المؤمنين . ! ؟

— ما هذا يا خائنة . . أخيانة ووقاحة ، وجرأة على أمير المؤمنين . . إن من يخوننى ويعصى أمرى يحل قتله . . .

— افعل ما شئت . . ولكن إذا لم يكن بدّ من أن تعد الحلال حراماً ، والطاعة خيانة والحق وقاحة ، فإنى أنا الخائنة العاصية . وليس زوجى جعفراً . . .

فنهرها الرشيد وقال لها :

— أراك تحبينه ، وتخلين التبعة عنه . . !

فتنهدت ثم أجهشت بالبكاء وقالت :

— نعم أحبه . . ولولا ذلك ما خالفت لك أمراً

— ويلك . . أتعترفين بحبه فى حضرتى . . أنه مقتول ، وأنت مقتولة أيضاً .

فلما سمعت ذلك غلب الضعف عليها ، وأخذت تتوسل باخوته فأجابها فى قسوة :

— لا تحاولى محالاً ، فقد عصيتما أمرى .

ثم وقف وكأنه يهمّ بالخروج ، فاستوقفته وقالت :

— لقد أحرجتنى يا هرون حتى ألجأتنى إلى التصريح بما لم تتعود سماعه منى ولا من امرأة سواى ، وكيف تحرم أمراً أحللته لنفسك . . !

فاستل الرشيد خنجره ، وكاد يضربها به ، وقال :

— اعزبى أيتها الخائنة لقد دنست شرف بنى العباس .. ثم تتجرئين علىّ بمثل هذا الخطاب يا وقحة ، وتقولين أنى أحرم أمراً أحله لنفسى .. !

— نعم أقول ذلك ، فان ما تحاسبنا عليه زواج شرعى أنت عقدته بيدك فما بالك لم تحاسب نفسك على من تتمتع بهن من الجوارى والسرارى فى قصرك تتهادون بهن بالعشرات والمئات بلا حرج حتى أن نساءكم يهدينكم من تطيب لكم . . هذه زوجتك زبيدة أهدتك عشر جوار جميلات ، وقد فعلت ذلك ، وهى لا ترى فيه عاراً ولا ذنب لها ولا لك ، ولكنكم ترون ذنباً لمثلى أن تتزوج من رجل زواجاً أحله الله . !

فصاح الرشيد فى غيظ وغضب :

— مسرور . . !

فقالت العباسة :

— أنت مصر على قتلى . !

— نعم . . . والآن .

— ألا تخشى الله . . تقتلنى لأنى عصيتك ، وأطعت الله . !

فأعرض الرشيد ، ونادى :

— مسرور . . !

ثم أدار ظهره ، فاستغاثت و بكت ، وهجم عليها مسرور فى وحشية وأمسك بشعرها فصرخت :

— آه . . أخى . . أبى . .

ولكن مسروراً عاجلها بالسيف . . . . ! !

* * *

حدث ذلك كله فى ظلام الليل ، لا يعلم به أحد غير الرشيد ومسرور وخادماه ، وأمر الرشيد فدفنت جثة العباسة فى القصر ، وأغلق بابه على من فيه من الخدم والجوارى وأقام عليه الحراس ، وكأنه ما وقع شىء ، ولا حدث حادث خطير . . !

وكان الرشيد قد عقد لجعفر بن يحيى على خراسان قبل أن يطلق يحيى ابن عبد الله العلوى من السجن ، ثم عدل عن ذلك ، وأمره بالبقاء ليدبر الفتك به

وفى اليوم الذى إعتزم أن ينفذ فيه دعاه إلى الصيد ، وخرج معه

إلى الانبار وكان معهما إبراهيم بن المهدى ، وقضوا يوماً لطيفاً ، ونزل الرشيد بعد الصيد والرياضة فى قصره بهذه البلدة

وذهب جعفر إلى دار صغيرة كان قد أعدها لنفسه ، وصحبه إليها صديقه إبراهيم بن المهدى ، وجلسا معاً ، فقال جعفر :

— هل لا حظت شيئاً على أمير المؤمنين ، فإنى قد استربت فى أمره.!

فقال إبراهيم :

— رأيته يهزل إذا جددت ، ويجد إذا هزلت . !

— كذا رأيته يا إبراهيم ، ولكن قد يكون ذلك لظن يخامرنى. وإن بعض الظن إثم ، فما أعلم أن الرشيد يقدم علىّ بين العرب والعجم أحداً أو يظن بى شراً . ولقد فضلنى حتى على بنى هاشم ، وبالغ فى إكرامى حتى زوجنى أخته العباسة . . فكيف يتنكر ؟ !

— وزبيدة ... هل نسيت أنك رفعت ابن ضرتها المأمون ، وساويته بابنها ، فأصبح له منافساً فى ملك أبيه ، وهل نسيت الفضل بن الربيع ، وقد سلبت منه الوزارة التى كانت لأبيه الربيع بن يونس فى عهد أبى وجدى

وإنهما لكذلك إذ دخل عليهما إسماعيل بن يحيى (ابن عم الرشيد) وهو صديق حميم لجعفر ، فقال له :

— هل اعتزمت السفر لخراسان ؟

فقال جعفر :

— نعم ، ولكن الرشيد عدل أخيراً عن تعييني والياً عليها . وسأخاطبه ليعود فى أمره ، فانى استربت من حاله معى اليوم ، وكرهت البقاء فى العراق بين هؤلاء الجواسيس الذين يحيطون بى من كل جانب .!

فقال إسماعيل :

— إذا كنت عازماً على السفر إلى خراسان ، وهى بلد كثير الخيرات واسعة الأقطار ، فأرى أن تهب بعض ضياعك للأمين ابن زبيدة ، فذلك أحظى عندها وعند الرشيد فغضب جعفر ، وقال :

— والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك إلا بفضلى ، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا . . أما كفى أنى تركته لا يهتم بشىء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته . وقد ملأت بيوت أمواله ذهباً ، وما زلت للأمور الجليلة أدبرها ، حتى يمد عينه إلى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى . . والله لئن سألنى شيئاً من ذلك ليكون وبالاً عليه . . !

وهنا دخل مؤنس بن عمران صديق جعفر ، فقال له :

— ما وراءك يا مؤنس ؟ . . .

— لا شىء يا سيدى . ولكن الناس يقولون إنك خارج إلى خراسان . ولو تركت ضياعك بالعراق لولد أمير المؤمنين لكان خيراً . .

— وأنت كذلك يا مؤنس ؟ . هل تريد أن أهبها للأمين كما وهبت قصرى ببغداد للمأمون بعد بنائه . !

— لقد كان ذلك خيراً لك فإن أمير المؤمنين الرشيد لما رآك تهدى

إلى ولده قصرك وهو عزيز عندك أكبر هذه الهدية منك ، وأبى قبولها ، وأقسم ألا يسكنه سواك ، وأهدى إليك أثاثاً نفيساً زينته به .

فسكت جعفر . . وقام أصدقاؤه فودعهم فى صمت إلى الباب .

ثم عاد جعفر وجلس وحده مفكراً . وصمم على أن يلح على الرشيد فى أن يعيد تعيينه فى خراسان ، وأقلقه التفكير فى هذه الحال ، فبعث إلى الطبيب جبرائيل بن بختيشوع ليعطيه دواء يريح أعصابه ، ويزيل ما فى نفسه من المتاعب والهموم . وكان بالقرب منه أبو زكار[1] الأعمى المغنى فاستدعاه وطلب منه أن يغنى من شعر السيد الحميرى من كبار شعراء ذلك العصر ، فغنى :

ما جرت خطرة على القلب منى   فيك إلا استترت عن أصحابى
من دموع تجرى فإن كنت وحدى   خالياً أسعدت دموعى انتحابى

فتذكر جعفر العباسة، وتذكر ولده، فدمعت عيناه، ثم استزاده، فغنى:

عَدانى أن أزورك غير بغض   مقامك بين مصفحة شداد
فلا تبعد فكل فتى سيأتى   عليه الموت يطرق أو يغادى

وما كاد ينتهى أبو زكار من ذلك حتى دخل مسرور فى جماعة من الجند ، وقد شهروا سيوفهم ، وقال :

— والله ما جئنا إلا لهذا . . .

فبهت جعفر وقال :

---

(١) كان أبو زكار من قدماء المغنين . وكان منقطعاً للبرامكة

— ما هذا يا أبا[1] هاشم

— إننى أمرت الليلة أن أعود برأسك إلى أمير المؤمنين . . .

فارتاع جعفر ، ولكنه تمالك ، وقال :

— إن أمير المؤمنين يمازحنى كثيراً بأصناف من المزاح . وما أراه إلا أنه يمزح . !

فقال مسرور :

— والله ما افتقدت الليلة من عقله شيئاً ، ولا رأيته شرب خمراً فى يومه . ولقد راجعته مراراً ، فهم بأن يضرب عنقى .

قال جعفر :

— الله . . الله . . فإن لي عليك حقوقاً لم تجد لها مكافأة فى وقت من الأوقات ! .

فقال مسرور :

— تجدنى فيما تحب سريعاً إلا فيما خالف أمير المؤمنين .

قال جعفر :

— ارجع إليه ، فاعلمه أنك قد نفذت ما أمرك به ، فإن أصبح كانت حياتى على يديك ، وكانت لك عندى نعمة مجددة . وإن بقى على مثل هذا الرأى نفذت ما أمرك به فى الغد .

— ليس إلى ذلك سبيل . !

(٢) أبوهاشم كنية لمسرور الجلاد

— إذن فأصير معك إلى دار أمير المؤمنين حتى أقف بحيث أسمع كلامه ومراجعته إياك ، فإذا أبديت عذراً ، ولم يقنع بمصيرك إليه برأسى خرجت فأخذتها عن قرب!

— أما هذا ، فنعم .

وهموا بالذهاب ، فتعلق ابن زكار الأعمى بمسرور ، وقال له :

— نشدتك الله إلا ألحقتنى بسيدى جعفر .. !

— وما رغبتك فى ذلك ؟

— إنه أغنانى عن سواه بإحسانه ، فما أحب أن أبقى بعده إن قتل!.

— حتى أستأمر فيك أمير المؤمنين ، فإن أمر ألحقتك به .

وساروا جميعاً إلى مكان يقرب من الرشيد حيث يسمعه جعفر ولا يراه فدخل عليه مسرور ، فقال له :

— يا أمير المؤمنين ، قد أخذتُ برأسه ، وها هو ذا فى الحفرة . . .

فقال الرشيد :

— ائتنى بها ، وإلا قتلتك والله قبله .

فخرج مسرعاً ، وقال لجعفر :

— أسمعت الكلام . . .

قال :

— نعم . . فشأنك ، وما أمرت به .

ثم أخرج[1] جعفر من كمه منديلاً صغيراً فعصب به عينيه . . ونفذ مسرور ما أمر به . . ودخل يحمل للرشيد رأس وزيره . . وكان الرشيد ، قد دبر القبض فى الحال على يحيي بن خالد والد جعفر وأولاده وأنصاره ومصادرة ما لهم من ضياع ومتاع وأموال وغلمان وجوار . !

ولما فاجأ سلام الأبرش بجنده يحيي بن خالد وهو جالس فى قصره وعلم بموت ابنه جعفر لم يضطرب ، ولم يتغير ، بل صاح قائلاً :

— يا أبا سلمة . هكذا تقوم الساعة . . !



(١) كان قتل جعفر فى سنة ١٨٧ هـ

آخرة الرشيد

ليس الموت شيئاً عجيباً ، ولكنه حين يلم
بعظيم من العظماء كهرون الرشيد ، وفى
ظروف خاصة كظروفه ، يكون جديراً بأن
يدون فى قصة ، تثير الاهتمام ، وتحوى إلى
جانب ما فيها من عبرة ، أدباً وسياسة

واشتدت العلة بهرون الرشيد فى مدينة « طوس » بخراسان ، وزايلته قوته ، ودبّ اليأس إلى نفسه وعاد وجهه المملوء بهجة ونضرة شاحباً كئيباً ، وجسمه القوى المملوء ضعيفاً هزيلا . وقد مدّوا له سريراً فى بستان الدار ، ووقف طبيبه جبرائيل[1] بن بختيشوع بجواره حائراً محزوناً أعجزه القضاء عن التغلب على الداء ، وأفقده الخطر كل سبيل إلى الرجاء . وشمل الأسى نفوس أصحابه ، وسرى الحزن العميق بين رجال دولته ، وتجهمت وجوه الجميع ، ولم يبق لهم من الأمل فى شفاء أمير المؤمنين إلا خيط دقيق رقيق ، ودُّوا لو نفخت فيه القدرة ، وانبعثت فيه القوة ببشرى الطبيب الفارسى الذى استنجد به ابن بختيشوع ، وبعث

(١) من أسرة بختيشوع المسيحية خرج منها كثير من الأطباء فى القرون : الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر الميلادية وبختيشوع كلمه معناها عبد المسيح

إليه بوصف داء الأمير مصحوباً بأثر من ، غير أن الطبيب فحصه ثم قال :

— عرفوا صاحب هذا الداء أنه هالك ، فليوص ، فإنه لا برء له منه.

وعلم الرشيد ما قاله الطبيب الفارسى ، فابتأس وأنشد :

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع محذور أتى
ما للطبيب يموت بالداء الذى قد كان يبرىء مثله فيما مضى

ووثب متحاملاً ، يقوم ويسقط ، وقد ضاق بالحياة ، وضاقت هى عن شفائه ، واستسلم للفناء ، وأسلمه الفناء إلى الضعف والتهالك . وأشفق رجاله ، فاجتمعوا يحملونه فنظر إلى جبرائيل بن بختيشوع ، وقال : أتذكر يا جبرائيل رؤياى بالرّقة[1] . . ؟

ثم التفت إلى « مسرور » وقال له : « جئنى يا مسرور من تربة هذا البستان »

فمضى ، وأتى بالتربة فى كفه حاسراً عن ذراعه ، فلما نظر الرشيد إليها صاح :

« هذه والله الذراع التى رأيتها فى منامى ، وهذه والله الكف عينها ، وهذه التربة الحمراء ما خرمت منها شيئاً » وبكى . !

***

وكان الرشيد قد خرج إلى خراسان لحرب رافع بن الليث الذى ثار عليه بسمرقند ، واحتال فى الزواج بامرأة يحيى بن الأشعث ، وكانت ذات

(١) الرقة بلدة على الجانب الأيسر للفرات بالعراق .

جمال و يسار ، فوقع بينهما ما جعله يتركها بسمرقند و يقيم فى بغداد متخذاً السرارى ، فلما طال ذلك عليها أرادت التخلص منه ، فعلم رافع بن الليث أمرها ، فطمع فيها ، وأغراها بإعلان خروجها عن الإسلام لتصبح طالقاً من زوجها ، ثم تعود فتتوب . ففعلت وتزوجها رافع .

فشكا يحيى بن الأشعث ذلك إلى الرشيد ، فكتب إلى « على بن عيسى » والى خراسان أن يفرق بينهما ، وأن يعاقب رافعاً ، فيجلده ، ويقيده ، و يطوف به على حمار فى المدينة تعذيراً له على فعلته النكراء ، وعبرة لسواه . ففعل به الوالى ما أمر به الرشيد ثم حبسه ، ففر رافع من الحبس ، فظفر به على بن عيسى ببلدة « بلخ » وأراد ضرب عنقه ، فشفع له بعض القوم ، وأعيد إلى سمرقند ، فأقام بها . ثم ما لبث أن وثب على عامل المدينة ، فقتله وقتل أصحابه واستولى هو عليها . فوجه إليه على بن عيسى ابنه عيسى ، فهزمه وقتله وأخذ يوسع نفوذه فيما جاوره من البلاد .

هال الرشيد مافعله رافع بن الليث ، وكان وقتئذ بالرقة، فاعتزم أن يسير إلى خراسان لتأديب الثائرين، وتأهب للرحيل فى جيش ضخم، اصطحب فيه قواده ووزراءه وأهل أنسه . وقبل الرحيل بأيام دخل عليه طبيبه ابن بختيشوع ، فوجده عابساً واجماً ، وقد استغرق فى التفكير ، وبدا على وجهه الحزن والتشاؤم ، فجزع الطبيب ، وخشى أن يكون ضحية من ضحايا تلك الحال الرهيبة التى كانت تعترى الرشيد ، فيأمر بسجن من يريد ، وقتل من يريد لوشاية من الوشايات أو شبهة من الشبهات ، وكأنما غضبه

ورضاه قدر يسوقه الله إلى من يشاء، فتحل به النقمة ، أو تسبغ عليه النعمة وينزل به العذاب ، أو يصيبه الخير والثواب .

ووقف ابن بختيشوع ملياً أمام سيده لا يجرؤ على سؤاله ، ولا يجد من نفسه قدرة على تفهم حاله ، وجمد فى مكانه جمود الموت . وكان من عادته أن يدخل على الرشيد كل صباح ليتفقد صحته ، ويتبسط الخليفة معه فيحدثه عن جواريه وساعات أنسه ويسأله عن أخبار العامة ، فلما رآه فى تلك الحال تملك الجزع نفسه ، وعقد الخوف لسانه واشتملت الرهبة جنانه.

وأحس الرشيد ما أصاب طبيبه ، فرفع طرفه إليه ، وتهيأ فى تكلف للحديث فتشجع ابن بختيشوع ، وقال :

— جعلنى الله فداءك يا سيدى . ما حالك ؟ . أعلة تشكوها ؟ أخبرنى عنها فلعل عندى دواؤها .

— لا أشكو علة . . .

— هل هى حادثة فى بعض من تحب ، فتلك مما لا يدفع ، ولا حيلة فيه إلا بالتسليم . والغم لا درك فيه .

— لا . . ولا ذاك . . .

— هل ورد عليك فتقٌ فى مملكتك . فإن كان ، فإن الملوك لا تخلو من ذلك وأنا أولى من أفضيت إليه بالخبر ، وتروحت إليه بالمشورة .

— ويحك يا جبرائيل . ليس غمى لشىء مما ذكرت . وإنما هو لرؤيا رأيتها فى ليلتى قد أفزعتنى ، وملأت صدرى .

— فرّجت عنى ياأمير المؤمنين. وما أرى فيما رأيت مايفزعك و يحزنك

— وكيف ذلك ؟ ! . .

— إنما الرؤيا لخاطر يتجسم فى المنـام ، أو من تأثير بخار من أبخرة الطعام ، أو هى ضغث من أضغاث الأحلام .

— لـكنى أخشى أن تكون صادقة ، فقد رأيت فيها عجباً لم أره فى يوم من الأيام .

— وماذا رأى أمير المؤمنين ؟

— رأيت كأنى جالس على سريرى ، فبدت من تحتى ذراع أعرفها ، وكف أعرفها ، وأفهم اسم صاحبها . وفى الـكف تربة حمراء . وقال لى قائل أسمعه ولا أرى شخصه :

« هذه التربة التى تدفن فيها « فقلت » وأين هذه التربة ؟ » . قال « بطوس » ، وغابت اليد وانقطع الكلام .

— أحسبك يا أمير المؤمنين لما أخذت مضجعك فكرت فى خراسان وما ورد عليك من انتقاض بعضها . !

— قد كان ذلك . .

— فهذا الفكر خالطك فى منامك ، فولد هذه الرؤيا ، فلا تحفل بها جعلنى الله فداءك وأتبع هذا الغم سروراً ، وأعد إلى نفسك البهجة بالموسيقى والغناء .

***

مضت الأيام على هذه الرؤيا ، والرشيد بمدينة « الرقة » يتأهب للرحيل إلى خراسان ، وذات يوم جمع المغنين ، وعلى رأسهم إبرهيم الموصلي ، وحضر فيهم مسكين المدنيّ ، و يعرف بأبي صدقة ، وكان مليح البادرة ، حاذقاً في العزف على القضيب . فشرب الحاضرون ، وعمل فيهم النبيذ ، فأمر الرشيد « ابن جامع[1] » أن يغنية فغنى ، فلم يطرب، فاقترح على غيره فلم يطرب ، فقال الرشيد ، « فليغن أبو صدقة » .

فأندفع أبو صدقة يغنى قول الشاعر :

قف بالمنازل ساعة فتحمل   فلسوف أحمل للبلى في محمل

فقال الرشيد : « يا مسكين أعده » فأعاده ، فأشجاه وأطر به ، وقال له : أحسنت وأجملت .

وعجب الحاضرون لا ستحسان الرشيد لغناء مسكين المدنى مع وجود فطاحل الموسيقى والغناء فى هذا الحفل .

ورفعت الستارة عن المغنين ، فقال مسكين :

— يا أمير المؤمنين إن لهذا الصوت خبراً . . فقد كنت عبداً خياطا لبعض آل الزبير وكان لمولاى علىّ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين ، فخطت يوما قميصاً لبعض الطالبين ، فأطعمنى وسقانى أقداحاً ، ودفع لى درهمين ، فخرجت وأنا جذلان ؟ فلقيتنى سوداء على رأسها جرة ، وهى تغنى هذا الصوت فأذهلنى عن كل مهم ، وأنسانى كل حاجة ، فقلت

(١) كان ابن جامع ينافس ابراهيم الموصلى فى زعامة الغناء والموسيقى فى ذلك العصر

لها : « بصاحب القبر والمنبر إلا ألقيت عليّ هذا الصوت » فقالت : وحق صاحب القبر والمنبر لا ألقيته إلا بدرهمين » فدفعت إليها الدرهمين ، فأنزلت الجرة عن عاتقها ، واندفعت ، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب على صدرى ، ثم انصرفت إلى مولاى ، فقال : « هلم خراجك » فقلت له : « كان . . وكان . . » فقال : « يابن اللخناء[1] » و بطحنى وضربنى، وحلق لحيتى ورأسى . و بت ليلتى من أسوأ خلق الله حالا ، وأنسيت الصوت مما نالنى فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه ، و بقيت متحيراً لا أعرف اسمها ولا منزلها . واننى لكذلك إذ نظرتها مقبلة ، فنسيت كل ما نالنى وملت إليها ، فقلت : «أُنسيت الصوت ورب الكعبة» وعرفتها ما أصابنى ، فقالت : «وحق القبر ومن فيه لافعلت إلا بدرهمين» فرهنت جلمى[2] على درهمين ، ودفعتهما إليها ، فأنزلت الجرة عن رأسها ، ومرت فيه . ثم قالت :

— كأنى بك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف درهم ! . .

ثم انصرفت إلى مولاى خائفا مكتئباً . فقال : « هلم خراجك ! . . » فلويت لسانى ، فقال : « يابن اللخناء ألم يكفك ما أصابك بالأمس »

فقلت : « أسمعك الصوت الذى اشتريته أمس واليوم » . واندفعت أغنيه ، فقال : « ويحك معك مثل هذا الصوت ولم تعلمنى . . امرأته طالق لو كنت قلته بالأمس لأعتقتك » . . !

---

(١) اللخناء النتنة الجسد (٢) الجلم بفتح الجيم واللام آلة كالمقص لجلم الصوف

فضحك الرشيد . وقال : « ويلك ما أدرى أيهما أحسن : حديثك أم غناؤك ، وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء » .!

***

وسار الرشيد بجيشه يريد خراسان ، وقد استخلف على الرقة ابنه « القاسم » وعلى بغداد ابنه « الأمين » واصطحب معه ، « المأمون » وكان يعطف عليه ويقدمه لنجابته ، وقد مهد له قبل وفاته للفوز بالخلافة ، وضم إليه كبار قواده ، وكان يود له البيعة من بعده لولا حبه لزوجته زبيدة ، وخشيته من بنى هاشم وانتقاض العرب عليه .

وصحب المأمون والده فى رحلته ، حتى إذا وصلوا إلى « جرجان » كانت العلة قد دبت فى جسم الرشيد ، فأمر المأمون بالتقدم إلى مرو مع فريق من جيشه وقواده العظام ، وفيهم عبد الله بن مالك ، ويحيى بن معاذ ، والعباس بن جعفر ، ونعيم بن حازم . وتقدم هو بمن معه إلى « طوس » . وهناك اشتد الداء ؟ وأعجزه الضعف عن المسير . وكانوا قد نقلوا إليه ما شككه فى نية المأمون وما جعله يعتقد أنه هو وأخاه الأمين يحوكا حوله الدسائس ، ويحيطانه بالعيون ، ويستعجل كل منهما موته ليفوز بمأربه فى الملك والسلطان .

ودخل عليه الصبّاح الطبرى وهو فى مرضه ، فقال له الرشيد : «ما أظنك ترانى أبداً . . »

— عافاك الله يا أمير المؤمنين ، وحفظك للدنيا والدين .!

— إنك لا تدرى ما أجد ، ولا تعرف ما أصابنى . فلا والله ما أشكو من علة الجسد مثل الذى أشكوه من همّ النفس .

— وماذا يخشى أميرالمؤمنين والأمة حوله ، مجمعة على حبه ، راضية ، بحكمه ، سعيدة فى ظلاله قوية بعزمه وسداده ؟

— كان ذلك . . ولكن أمراً أخشاه من بعدى ، وقد بدأ منذ دب المرض إلى بدنى . فالأمين والمأمون يتنافسان ، وقد صار لهما بين رجالى حزبان ، ولكل واحد منهما علىّ رقيب . فمسرور رقيب المأمون، وجبرائيل ابن بختيشوع رقيب الأمين ، وما منهم أحد إلا وهو يحصى أنفاسى ، ويستطيل دهرى ، وإن أردت أن تعلم ذلك ، فالساعة أدعو بدابة ، فيأتونى بها عجفاء قطوف لتزيد بى علتى .

ثم دعا الرشيد بدابة فأتوا بها كما وصف ، فنظر إلى الصبّاح وركب !..

* * *

وأقام الرشيد بطوس ، فجاءه أنباء انتصارهرثمة بن أعين والى خراسان الجديد على رافع بن الليث ، وأسره طائفة من أهله وصحبه وفيهم أخوه بشير بن الليث ، وقد بعث بالأسرى إلى « طوس » .

سر الرشيد بهذا النصر وتفاءل خيراً ، وزال عنه كثيراً مما يجده من الآلام ، وابتهج ساعات من نهار ظن فيها أن العلة قد زايلته وعادت إليه صحته ، واستعاد بهجته ونشاطه ، ومرت برهة من الزمان ، ثم أحس بالداء يهاجم بدنه ، فابتأس الرشيد وعاد إلى يأسه ، واستفحل هذا اليأس حين

علم ما قاله عنه الطبيب الفارسى . فقد أرسل إليه ابن بختيشوع يستشيره ويسأله المعونة فى علاج الأمير فبعث يقول :

— عرفوا صاحب هذا الداء أنه هالك ، فليوص فإنه لا براء له منه .

ووثب متحاملاً يقوم ويسقط . . . ونقم على هؤلاء الثائرين الذين جشموه متاعب هـذه الرحلة . ودعا بأخى رافع « بشير بن الليث » وصاح به :

— أزعجتمونى حتى تجشمت هذه الأسفار ، مع علتى وضعفى ، والله لو لم يبق من أجلى الآن إلا أن أحرك شفتى بكلمـة لقلت : « اقتلوه » ولأقتلنك قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك . ثم أمر بقصاب ففصله عضواً عضوا . . .

واشتدت العلة بالرشيد وشعر بالموت يدلف فى بدنه ، فقال لجبرائيل ابن بختيشوع :

— أتذكر ياجبرائيل رؤياى بالرقة ؟ ! . .

ثم التفت إلى مسرور وقال له :

— جئنى يامسرور من تربة هذا البستان .

فمضى مسرور وأتى بالتربة فى كفه حاسراً عن ذراعه ، فلما نظر إليها قال :

— هذه والله الذراع التى رأيتها فى منامى ، وهذه والله الكف عينها وهذه التربة الحمراء ، ما خرمت منها شيئاً ؛ وبكى . .

وأُثقل على الرشيد ، ودب إليه الفناء ، وأرجف به أصحابه ، فبلغه ذلك ، وخشى الفتنة ، فأمر بمطية يركبها ليراه الناس ، فجيء له بفرس فلم يقدر على النهوض ، فجيء له ببرذون ، فضعف عنه ، فجيء له بحمار فلم يستطع ركوبه فقال :

— ردونى . . ردونى . . صدق والله الناس . وأنشد .

أحين دنا ما كنت أخشى دنوه رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوماً ، وقد كنت محسداً فصبراً على مكروه أمر النوائب

وأيس الرشيد من نفسه ، واستهلك فى يأسه ، ودخل عليه سهل بن صاعد ، وهو يقاسى ما يقاسي فقال : « عافى الله أمير المؤمنين » .

— أحسنت الدعاء وأصبت لو استجيب . .

— أرجو لك ذلك . .

فضحك المريض العظيم على فراش موته ضحكا شَحِيحاً ، ثم التفت إلى سهل وقال :

وإنى من قوم كرام يزيدهم شماساً وصبراً شدة الحدثان

وغشيته سكرات الموت ثم استفاق ، فدعا أصحابه وقال لهم :

— « إن كل مخلوق ميت ، وكل جديد بال ، وقد نزل بى ما ترون وأنا أوصيكم بثلاث :

« الحفظ لأمانتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم . وانظروا الأمين والمأمون فمن بغى منهما عن صاحبه فردوه عن بغيه وقبحوه له » .

ثم أمر بحفر قبر فى موضع من بستان الدار ، وأنزل إليه قوماً قرأوا فيه القرآن حتى ختموه ، وهو فى محفة على شفير القبر يقول : « ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، يا ابن آدم تصير إلى هذا . . وا سوأتاه من رسول الله . . » ! !

وأغمى عليه فحملوه إلى داخل الدار ، فبقى فى إغمائه ثلاثاً ، ثم صعد[1] فى الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ بعد أن قضى حظه من حياة ما زالت مضرب الأمثال فيما جمعت من علم وأدب ، وأنس وطرب ، ونور وظلام ، وتسامح وانتقام ، وعِبَر منْ حكم الفرد وجبروت السلطان . !



(١) بويع هرون الرشيد بالخلافة فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ . فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وبضعة أشهر

على نهر دجلة

هى مأساة خليفة شاب ، وقصة مروعة بين
أخوين تنازعا على الخلافة والسلطان ، هما ،
« الأمين » و « المأمون » ابنا هرون الرشيد
وهى تتضمن تصويراً فنياً دقيقاً لهذا الحادث
التاريخى وما أحاط به من ظروف وأسباب .

وأدخل الخليفة «الأمين» أسيراً فى دار أبى صالح الكاتب ، وقد نشر الظلام لواءه، وفنى نور الشفق فناء الأمل فى نفس اليائس ، وأدلهم الخطب وأمسى الأمين فى حصارين شديدين ، و بين كتيبتين عظيمتين : كتيبة الليل الداجى البهيم ، وكتيبة طاهر بن الحسين قائد المأمون ، و إرتعد من الجزع والبرد لغرقه غدراً فى مساء قارس ثم لإحاطة شياطين الجند به ، ودفعهم إياه كما يُدفع المجرم الأثيم ، وهو خارج من مياه دجله ناجياً بنفسه هارباً من هذا النهر الذى طالما جرى فى خدمته ، وتهادى فى أعطاف ملكه ، وكان أوفى له من وزرائه وقواده ، وأحب إليه من عامة جنده ، فلما بلغ الشاطىء بين الناجين من الغرقى شمّ منه جنود طاهر رائحة المسك فأمسكوا به قائلين :

— هذا المخلوع . . . هذا المخلوع . . !

فقال الأمين :

— ما أنا بالمخلوع . . إنما أنا المخذول . . أنا المخـذول من جندى وقوادى ، دعونى . . .. دعونى حتى أرتدى ثيابى ، فأنى أستحى أن ألقى الناس . . !

فقالوا :

— إنك لن تفلت اليوم منا . . !

فدفعهم الأمين ، ودافعوه ، وكان قوى الجسم ، طويل القامة ، حلواً جميلا ، فتكاثروا عليه وشهروا فى وجهه السيوف ، وحملوه على جواد كما يحمل الأسير ، وانطلقوا به إلى تلك الدار ، وزجوه فى حجرة ضيقة ، وهو يكاد يكون عريان لا يستره غير سراويل وعلى كتفيه خرق ممزقة وقد تلثم بعمامته ، ولم يكن هناك غير أحمد بن سلام جيء به مأسوراً حتى يفى بفديته فى الصباح . وبالحجرة حصير ووسادتان وسراج مختصر ضئيل يبعث الكآبة واليأس . وكان المكان ساكناً رهيباً ، والجند من ورائه واجمون متحفزون ، لا يسمع بينهم غير صلصلة السيوف ، وصهيل الخيل ولا شاغل لهم إلا مصير هذا العاهل السجين .

وجلس الخليفة الأمين على حصير حقير ، وكان قبل ساعة يجلس على أريكة قصر الخلد على ضفاف دجلة ، وعليه قلنوسة وثياب بيضاء ، وطيلسان أسود ، وبيده الخاتم والقضيب ، وحوله جواريه ، وغلمانه يحيطون به ، وكلهم يبذل له نفسه ويتفانى فى خدمته ، ويقدم إليه معونته .

ومرت لحظات استعرض فيها كل ما مر به من جاه عريض ، وعيش باسم رغيد وملك واسع السلطان ، انتظم المشرق والمغرب ، من تخوم الصين إلى أقاصى البحر الأبيض ، وحوى من الولاة والقواد والجنود من يُرهب بهم الملوك ، و يستذل بهم الأمراء والسلاطين ، لو أنه جمع إليهم قوة العزيمة وسداد الرأى ، ودربة السياسة وأمانة الأصحاب والأنصار .

وكان أحمد بن سلام ينظر إليه فى هذه الحال مستعبراً ، ويتحدث فى نفسه مسترجعاً . ولما أفاق الأمين من غشيته ، نظر إليه ثم قال :

— أيهم أنت يا هذا ؟

فقال أحمد :

— أنا مولاك يا سيدى . .

— وأى الموالى أنت ؟ . .

— أنا أحمد بن سلام صاحب المظالم .

— وأعرفك بغير هذا . . كنت تأتينى بالرّقة ، وكنت تلاطفنى كثيراً لست مولاى بل أنت أخى . .

— بل أنا عبدك يا سيدى . .

— كلا ، كلا ، فقد زال عنى ما يعبده الناس . . ! !

فقال أحمد :

— قبّح الله الفضل بن الربيع ، فقد أوردك هذا المورد ، ثم فرّ كما يفر الثعلب . !

فقال الأمين :

— وقبح الله الفضل بن سهل، فقد أراد أخي على معاداتي، وما كنت أريد به شراً حين دعوته ، وما رغبت في قتله ، ولو كان حيا ما أراد قتلي

— أو ليس المأمون حيًّا ؟ !

— بلى فقد سمعت أنه مات . . !

فقال أحمد في دهشة :

— وهذا القتال عمن إذن ؟ !

فقال الأمين في ثقة و إيمان :

— ليس عن أخي إذا كان حيًّا ، ولا عن أحد من آل العباس ، ولكنه عن خصام بين العرب والفرس، كل يريد السيادة لجنسه ، والسلطان لبني قومه ، وما أظن الفرس قد أيدوا أخي إلا لأنهم أخواله ، ولأنهم يكرهون العرب ، أما أنا فهاشمي الأب والأم . وما أظن العرب كانوا يؤيدونني إلا لذلك .

ثم ارتجف وتهالكت نفسه ، وقال :

— يا أحمد أدن مني ، فاني أشعر بوحشة شديدة . ما تراهم يصنعون بي ، أتراهم يقتلونني ؟ أم تراهم يسجنونني ؟ ! . . .

وخلع أحمد بن سلام مبطنة كانت عليه وألبسه إياها ، وضمه إليه ، فوجد قلبه يخفق خفقاناً سريعاً . . .

***

كان الربيع بن يونس والد الفضل بن الربيع وزيراً للمنصور ، ثم وزيراً للمهدى ، والهادى ، وكان رأس الحزب العربى فى الدولة العباسية ضد الفرس . وقد توفى فى زمن الهادى ، فلما تولى الخلافة هرون الرشيد ، واستوزر يحيى بن خالد البرمكى عظم ذلك على الفضل بن الربيع والحزب العربى . وكان الفضل يطمع أن يخلف أباه فى الوزارة ، وأن يكون سلطان الدولة بيد العرب لا بيد الفرس ، فسعى جاهداً حتى كان أعظم الهادمين لمجد البرامكة ، والدافعين إلى نكبتهم ، واتخذه الرشيد وزيراً له بعد مقتل جعفر بن يحيى البرمكى .

وكان الفضل بن سهل من مجوس خراسان ، وكان شجاعا هماما ، فاختاره يحيى بن خالد البرمكى لخدمة المأمون وهو صبى فأسلم على يده ، وأنس فيه النجابة والذكاء ، فتوقع أن تؤول الخلافة إليه ، وأن يظفر عنده بالوزارة فلا يخرج سلطان الدولة من أيدى الفرس إلى أيدى العرب ، وكذلك كانت سياسة الوزراء الفرس وأعوانهم فى عهد العباسيين . فلما أخفقوا ، وحلت بهم نكبة البرامكة ، وانتصر الحزب العربى بزعامة الفضل بن الربيع أضمروا الحقد لخصومهم واعتزموا الثأر لأنفسهم .

وكان المأمون من أم فارسية تدعى « مراجل » فكان الفرس أخواله وكان الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور ، فهو هاشمى الأب والأم ، فتمثل فى الأخوين الحزبان المتنافسان : الحزب العربى ، والحزب الفارسى ، فلما أراد الرشيد قبل وفاته البيعة لولى عهده من بعده

نشط كل من الحزبين فكان الأول يؤيد الأمين ، والثانى يؤيد المأمون

وجلس الرشيد قبل وفاته بسنوات مشغول البال مهموم النفس؛ ثم قال لمن حوله « علىّ بيحيي بن خالد » فما لبث أن جاء إليه ، فقال له :

— يا أبا الفضل إن رسول الله (ص) مات فى غير وصية ، والإسلام جذع والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد أمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر . وكان من خبره ما قد علمت . وإن أبا بكر صيّر الأمر إلى عمر ، فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم سيرها عمر شورى ، فكان بعده ما بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها ، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد ، فان ملت إلى عبد الله المأمون أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً الأمين لم آمن تخليطه على الرعية

وتشاور الخليفة ووزيره مليا ، ثم استقر الرأى على أن تقسم الدولة إلى قسمين : قسم يليه الأمين وهو العراق والشام وما بعدها إلى بلاد المغرب ، وقسم يليه المأمون وهو خراسان وسائر البلاد المشرق على أن تكون الخلافة للأمين ، وكان القواد والجند فى ذلك الحين يعملون فى أطفاء الفتن فى خراسان تحت أمرة المأمون ، فلما علمت أم جعفر زبيدة بهذا الاتفاق ، دخلت على الرشيد وقالت :

— ما أنصفت يا أمير المؤمنين ابنك محمدا حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله المأمون . . !

فقال الرشيد :

ـ وما أنت وتمييز الأعمال وأخبار الرجال ، إنى وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم .

فانصرفت زبيدة ، وهى تكابد كمداً وغيظاً . . !

وخرج الرشيد حاجًّا قبل نكبة البرامكة بعام ، ومعه وليا عهده الأمين والمأمون فكتب البيعة لهما بحضور الوزراء والقواد ، وحلف الأمين للرشيد على الوفاء بالعهد ، فلما أراد الخروج من الكعبة رده جعفر بن يحيى البرمكى وقال له :

ـ فان غدرت بأخيك خذلك الله ؟

فقال الأمين : نعم خذلنى الله أن غدرت بأخى .

فرده جعفر ثانياً ، وثالثاً . وفى كل مرة يجيبه بهذا الجواب .

وأنبأ الفضل بن الربيع زبيدة ما فعل جعفر البرمكى بالأمين ، فزاد من حقدها عليه . وأمر الرشيد بتعليق كتاب البيعة فى الكعبة ، فوقع الكتاب على الأرض ، فتشاءم الحاضرون ، وقال أحدهم فى نفسه :

ـ إن هذا الأمر سريعٌ انتقاضُه . . ؟

* * *

وتوفى الرشيد بطوس ، والمأمون معسكر بمدينة مرو بخراسان ، والأمين يتولى العراق والشام . فأسرع الفضل بن الربيع بالعودة إلى بغداد ، وحث القواد والجند على السير معه ، واللحاق بالأمين ، ورغبهم ومنَّاهم ،

وأيقظ فى نفوسهم الحنان للأهل والأوطان ، فاستجابوا له ، وراحوا معه ، وحملوا كل ما كان مع الرشيد من مال وعتاد .

وبلغ المأمون موت أبيه ورجوع جيشه وقواده ، وأخذهم ما أوصى به الرشيد له ، وخشى أن تذهب الولاية من يده بتحريك الفضل بن الربيع فجمع رجاله وشاورهم فى أمره . فقال الفضل بن سهل :

— ما الذى يخشاه الأمير ، وقد نزل فى أخواله ، وبيعته فى أعناقهم . اصبر فلسوف تكون لك الخلافة .

وقال غيره من الحاضرين ما قاله الفضل ، فاطمأن ، واتخذه وزيراً ، وقال له :

— قد صبرت ، وجعلت الأمر إليك فقم به.

نهض الفضل بن سهل بأمر المأمون ، وجعل يستميل إليه الناس ، ويصرفهم عن الأمين حتى اشتدت العداوة بين الأخوين وقطعت الدروب بين بغداد وخراسان ، ومنع المأمون ذكر اسم الأمين فى الخطب ، وقبض على ولاته وعماله ، وولى غيرهم من رجاله فلما بلغ الأمين ما فعله أخوه بعث يستدعيه بكتاب ، فاعتذر ، فبعث إليه مرة أخرى يستحلفه بالرحم ، ويستأمنه ، وكاد يعود إلى بغداد لولا أن الفضل بن سهل أغراه بالامتناع ، وحذره من السفر ، فرفض اطاعة الخليفة ، فأشار الفضل بن الربيع على الأمين بخلعه من ولاية العهد واسنادها إلى ابنه موسى . وزين له محاربته وأسره ، فانه إن بقى بخراسان اشتدت شوكته ، وعظم خطره ، وازداد سلطانه.

***

وجهز الأمين جيشاً لمحاربة أخيه المأمون بقيادة على بن عيسى بن ماهان ، وكان من خيرة القواد ، فخرج فى خمسين ألفا كاملةالعدة ، وركب معه الأمين مودعاً إلى ظاهر المدينة ، ومر الجيش بباب ز بيدة فخرجت إليه ، واستدعت قائده ، وقالت له :

— يا على أن أمير المؤمنين ، و إن كان ولدى وإليه انتهت شفقتى ، فإنى على عبد الله المأمون لمنعطفة مشفقة ، فاعرف له حقه ، ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيراً له ، ولا توهنه بقيد أو غل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادما ، ولا تساوه فى المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، و إن شتمك فاحتمل . . .

ثم دفعت إليه قيداً من فضة ، وقالت :

— إذا صار إليك فقيده بهذا القيد . . . .

فقال لها : « سأفعل » . وكان الناس يجزمون بنصرة على بن عيسى لشجاعته ومقدرته .

وسار الجيش من بغداد فى موكب حربى رهيب ، حتى وصل إلى « الرى » وكان طاهر بن الحسين معسكراً بها فى أر بعة آلاف . ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، فاستمال طاهر جند على وقواده بالعطايا والأموال ودس فيهم من حرض بعضهم على الانضمام إليه ، فانهزم على ابن عيسى هزيمة منكرة وقتل فى الموقعة ، وتشتت شمل رجاله وأخذت رأسه إلى طاهر ، فكتب إلى الفضل بن سهل وزير المأمون يقول :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ، ورأس « على » بين يدى ، وخاتمه فى أصبعى ، وجنده متصرفون تحت أمرى . والسلام » .

فدخل الفضل على المأمون وهنأه بالنصر ، وهرع الناس إليه يسلمون عليه ويهنئونه بالخلافة ، وطاف جند المأمون برأس على بن عيسى فى خراسان .

وبلغت الهزيمة الأمين ، فاغتم ، وأحضر الفضل بن الربيع ، واستشاره فأشار عليه بمصادرة أملاك المأمون ، فأحضر وكيله نوفل الخادم ، وقبض ما بيده من ضياع المأمون وغلاته وأمواله . ثم تتابعت الحروب بين الأخوين واشتدت الوقائع بين الفريقين ، فظهر المأمون على الأمين ، وتكررت هزائمه ، وتعدد خروج الولاة عليه ، ونكوص القواد عن طاعته ، وانضمام الجند إلى أعدائه . وكان طاهر بن الحسين قوى العزيمة ، بارع الحيلة ، عظيم الدهاء ، فاستعان بالدسائس والمال على الفوز فى ميادين القتال ، حتى دانت له البلاد ، وحصر الخليفة فى بغداد .

***

تحصن الأمين بمن معه من فلول جيشه بالمدينة ، وحاصره طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين حصاراً شديداً لقى منه البغداديون عنتاً وجوعاً مميتاً ، ففت فى عضدهم وتمنوا الخلاص من بلائهم ، فانضموا إلى أصحاب طاهر ، فزاد ذلك فى ضعف الأمين ، وانصراف القواد والجند عنه . ودخل طاهر وهرثمه المدينة ، واستوليا عليها ، وتحصن الأمين بقصره ،

وبقى به محصوراً ثلاثة أيام . ودخل عليه حاتم بن الصقر ، ومحمد بن إبراهيم ، وبعض رجاله ، فقال لهم الأمين :

— أهكذا تخذلوننى أيها القواد وتتلكؤون فى طاعتى انتظاراً لما تصيبون من خير ، فالحمد لله الذى يرفع ويضع ، ويعطى ويمنع ، وإليه المصير . أحمده على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال . . .

فقال حاتم :

— قد آلت حالك وحالنا إلى ما ترى . وقد رأينا رأياً نعرضه عليك.

فقال الأمين :

— أللرأى مجال فى هذه الحال ، وليس لنا عدة ولا مال ، وقد أحيط بنا من كل جانب !!

— نعم . لقد آلت حالك وحالنا إلى ما ترى ، ولكننا نرجو أن يكون الرأى الأخير الذى نعرضه عليك صواباً ، ويجعل الله فيه خيراً .

— وما هو ؟

— لقد بقى من خيلك معك ألف فرس من جيادها ، فنرى أن تختار ممن عرفناه بمحبتك سبعمائة رجل ، فتحملهم على هذه الخيل ، وتخرج ليلاً من باب من هذه الأبواب ، فإن الليل لأهله ، ولن يثبت لنا أحد إن شاء الله .

— وإلى أين نسير ؟

— إلى الجزيرة والشام ، فتفرض الفروض . وتجبى الخراج ، وتصير في مملكة واسعة وملك جديد ، فيسارع إليك الناس ، وينقطع عن طلبك الجنود .

— نعم الرأى ما رأيتم . . .

واتصل الخبر بطاهر بن الحسين ، فكتب إلى سليمان بن أبي جعفر ، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك ، وإلى السندى بن شاهك . وهم من أصحاب الأمين :

« والله لئن لم تردوه عن هذا الرأى ، لا تركت لكم ضيعة إلا قبضتها ولا تكون لى همة إلا أنفسكم » .

فاجتمع الرجال الثلاثة وتشاوروا فيما بينهم ، ووازنوا بين ما يصيبون وما يخسرون في وقت ليس لهم فيه عند الخليفة التعس مطمع فغلبت على نفوسهم شهوات الدنيا — شأن بطانة الملوك — ودخلوا على الأمين فقالوا :

— قد بلغنا الذى عزمت عليه ، فنحن نذكرك الله في نفسك . إن هؤلاء صعاليك ، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب وهم يرون أن لا أمان لهم عند أخيك . ولسنا نأمن إذا برزوا بك وحصلت في أيديهم أن يأخذوك أسيراً ويقتلوك ويتقربوا برأسك إلى عدوك.

فظن الأمين أنهم ناصحوه ، فأجابهم :

— نعم الرأى ما رأيتم . !

فقالوا :

— وإنما غايتك اليوم السلامة واللهو ، وطاهر يتركك حيث أحببت ،

فأخرج اليوم وأعطه خاتم الخلافة والبردة والقضيب .

قال الأمين :

— ويحكم أنا أكره ابن الحسين ، فإنى رأيت فى منامى كأنى قائم على حائط شاهق عريض الأساس ، وعلىّ سوادى ومنطقتى وسيفى وقلنسوتى . وكان طاهر فى أصل ذلك الحائط فما زال يضرب به حتى سقط ، وسقطت قلنسوتى . فإن كان لابد من الخروج فإلى هرثمة قائد أبى فهو مولانا وهو بمنزلة الوالد ، وأنا به أشد أنساً وأقوى ثقة .

قال السندى بن شاهك :

— صدقت يأمير المؤمنين ، فبادر بنا إلى هرثمة ، فإنه يرى أن لا سبيل عليك إذا خرجت إليه . وقد ضمن لى أنه مقاتل دونك إن همّ أحد بقتلك .

واتفق الجمعان على خروج الأمين ليلا من قصره فيعبر نهر دجلة مع هرثمة وأصحابه فى « حرّاقة » إلى منزل ببستان موسى حيث يخلع الأمين بردة الخلافة و يسلمها هرثمة مع الخاتم والقضيب .

وعلم طاهر بن الحسين بما دبره هرثمة ، فاشتد عليه ألا يكون الفتح بيده ، واعتزم أن يمنع الأمين من تنفيذ هذا الاتفاق . وأكمن له حول قصر الخلد ، وقصر أم جعفر ، وعلى شاطىء دجلة ، كمناء من جنوده يحملون السيوف والنشاب .

وتهيأ الأمين للخروج ليلة الأحد السادس من صفر سنة ١٩٨ ه وجاء بعض الخدم فأخبره بما دبره طاهر حول نهر دجلة ، ونصحه بتأجيل

ما اعتزم عليه ، فأبى وقلق قلقاً شديداً ، ولكنه فضّل الخروج ، ولبس ثياب الخلافة ونزل إلى صحن القصر ، فجلس على أريكته ، وأحضر ابنيه القاسم وعبد الله فقبلهما وقال :

— أستودعكما الله ، فلست أدرى أ ألتقى بكما أم لا . الله خليفتى عليكما . . وبكى ، و بكى الطفلان ، و بكت أم جعفر ، و بكت زوجته لبابة وجواريه . . .

ثم نهض إلى فرسه الزهرى ، فامتطى صهوته ، وخرج معـه غلاماه عيسى الجلودى وابنه محمد ، على جوادين يحرسانه ، وأمامهم رجل يحمل مصباحاً واحداً وساروا حتى أتوا إلى باب خراسان ، ففتح . فدخلوا منه إلى المشرعة بشاطىء دجلة فإذا حراقة هرثمة فنزل إليها الأمين ومن معه ، وقام هرثمة وأصحابه وفيهم احمـد بن سلام صاحب المظالم ، فقال هرثمة : « يا سيدى وابن سيدى » وعانقه وقبله بين عينيه ثم جعل الأمين يتصفح وجوه الحاضرين .

وأمر هرثمة بالحراقة أن تدفع ، فسارت على مياه دجلة ، والظلام حالك رهيب والقلوب واجفة ، والنفوس مشفقة ، وعيون جند طاهر ترقبها كما يرقب الوحش فريسته والصائد صيده ، وقد تحفزوا للغدر بالعابرين .

و إنهم فى وسط النهر إذا بالجند يخرجون إلى الحراقة فى الزوارق من كل جانب خروج الشياطين ، و بعضهم يتعلق بها يحاول إغراقها ، و بعضهم يرميها بالسهام والآجر ، و بعضهم يطعنها بالرماح حتى نقبت ، وانكفأت بمن فيها ، فمزق الأمين ثيابه وسبح فى الماء وسبح هرثمة وأحمد بن سلام ومن

معه . وقبض بعض الجند على أحمد ، فافتدى نفسه بعشرة آلاف درهم ، يدفعها فى الصباح : فاقتادوه إلى دار أبى صالح الكاتب وسجنوه حتى يدفع فديته .

وخرج الأمين من الماء مبعثراً منهوكا يكاد يكون عريانَ لا يستره غير سراويل ، وخرق ممزقة ، ورائحة المسك تفوح من جسمه فعرفه جند طاهر فأمسكوا به قائلين :

— هذا المخلوع . . هذا المخلوع . . . !

. . . وحملوه على جواد كما يحمل الأسير ، وانطلقوا به إلى دار أبى صالح وألتقى بأحمد بن سلام ، فقضى معه آخر ساعاته فى هول وأسر شديد ضرب به عليه صعاليك الجند . وساقه إليه خذلان القواد والأعوان .

وارتجف الأمين وقال : « يا أحمد ادن منى ، فإنى أشعر بوحشة شديدة . . ما تراهم يصنعون بى . أتراهم يقتلوننى ؟ أم تراهم يسجنوننى ؟ !

وخفق قلبه خفقانا سريعاً ، ومرت به ساعة من الليل على هذه الحال لقى فيها الأمين ما أنساه أبهة الملك ، وعز الجاه ، ومتعة السلطان . وإنه لكذلك إذ دق باب الدار ، ففتح ، ودخل رجل عليه سلاح ، فنظر فى وجه الأمين نظرة فاحصة . ثم ارتد عائداً

وكان منتصف الليل فإذا حركة وقوم يدقون الباب مرة أخرى ، ففتح لهم فدخلوا وبأيديهم سيوف مسلولة وفؤوس مسنونة ، فجزع السجينان ، واختبأ أحمد بن سلام خلف الحصير وأخذ الأمين وسادة يحتمى بها ، وهو يقول :

— ويحكم . . ويحكم . . أنا ابن عم رسول الله . . أنا ابن هرون الرشيد . . أنا أخو المأمون . . الله الله فى دمى . . !

فأحجموا قليلا ، وجعل بعضهم يقول لبعض تقدم ، ويدفع بعضهم بعضاً . ثم تقدم « خمارويه » مولى قريش الدندانى ، فضربه بالسيف ضربة وقعت فى مقدم رأسه فصاح الأمين : « آه . . ويلك . . » وضربه بالوسادة التى بيده ، واتكأ عليه ليأخذ سيفه ، فصاح خمارويه :

— قتلنى المخلوع . . قتلنى . .

فاجتمعوا عليه وعاجلوه بالسيوف والفؤوس ضرباً وطعناً ، ثم ذبحوه . !

* * *

فاضت نفس أمير المؤمنين على هذه الصورة الشنعاء[1] ، وذبحه صعاليك الجنود كما تذبح الشاة ، ثم فصلوا رأسه ، وحملوها إلى طاهر بن الحسين ، فنصبها على باب الأنبار ، وخرج الناس أفواجاً ينظرون !

وبعث ابن الحسين برأس الأمين مع البردة والخاتم والقضيب إلى الفضل بن سهل ، فدخل على المأمون يحمل الرأس على ترس ، فلما رآها اشتد عليها وبكى ، فقال الفضل :

— الحمد لله يا أمير المؤمنين على هذه النعمة الجليلة . . ! !

فقال المأمون :

— أو تظنها نعمة جليلة . . إن الأمين أخى ، وابن هرون الرشيد . .

(١) قتل محمد الأمين فى صفر سنة ١٩٨ هـ . وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة و ١٢ يوماً . وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر

فقال الفضل :

— أو لم يتمنّ يامولاى أن يراك بحيث تراه الآن ؟ وأن يظفر دونك بما ظفرت به ؟ ! .

فسكت المأمون ، و بعث بالرأس إلى بغداد حيث دفنت مع جثة الأمين . وما لبث أن سلا وتعزّى بما آل إليه من ملك وسلطان . والمُلك عقيم لا يعرف أخاً ولا ابناً ولا رحماً ... !



فهرس

١٩٤٥/٥/١/١٤٦٨



دار المعارف للطباعة والنشر



الثمن ٢٥ قرشاً